دَاوُد مَلِكَا

حكاية من العهد القديم

الدكتور
وجدي الفيشاوى

دَاوُد مَلِكاً

حكاية من العهد القديم

الدكتور وجدى الفيشاوى

مَدْخَـــل

تطاول القمص زكريا بطرس – الملقب بـ "الأب يوتا" على محمد بن عبد الله نبى الإسلام والمسلمين .. سبه بأقذر الألفاظ ووصفه بأقبح الصفات وقال فيه وفى نسبه وسيرته ودينه كل شئ قبيح.[1]

وقبلها أعلن نفس القس – أو كما يقولون "القمص" – أنه سيحاكم نبى الإسلام ويحكم بشنقه ألف مرة وذلك لما ارتكبه من جرائم قتل وسرقة واغتصاب وهتك عرض وتزوير وترويج إشاعات وجرائم ضد الإنسانية وإبادة جماعية وجرائم أخلاقية.[2]

ونحن لا نشير إلى ما كتبه "يوتا" بغية الرد عليه بنفس أسلوبه المتدنى أو أن نكيل له بنفس الكيل ونزيد .. إننا نملك القدرة القادرة القائمة على الدراسة العلمية الموضوعية العميقة ، إلى جانب القوة النابعة من العقيدة الصادقة الحقة التى تحتضن ما فى الأديان من حق وصدق ومحبة وصفاء.

فى كتابنا **موسى فى الأساطير الإسرائيلية** عالجنا حياة موسى النبى وأوضحنا فكره وعقيدته من وجهة نظر موسوية ولم نخرج قط عن نطاق الكتب الخمسة المنسوبة إليه والمسماة بـ "التوراة". لم تصدر منا كلمة ولم يخط قلمنا عبارة واحدة تسئ إلى هذا النبى التوراتى الذى نؤمن إيماناً راسخاً بجوهر ما جاء به وما أُوحىَ إليه.

وفى كتابنا **لا تصلبوا المسيح** عرضنا كل الآراء المتناقضة والمتضاربة التى تناولت شخصيته فى كتابات كبار المفكرين ورجال الكهنوت فى العالم الغربى. هذا معناه أننا ناقشنا آراء المسيحيين أنفسهم فيما يخص

---

[1] جريدة "الخميس": 2010/3/25 ، ص5.

[2] جريدة "النبأ": 2009/10/10 ، ص16.

شخصية المسيح ومنهج فكره وجوهر تعاليمه. وهذا معناه أيضاً أننا قد استبعدنا من دراستنا كل ما يمت للإسلام بصلة وللمسلمين بنسبة حتى لا يقال دين ضد دين وفكر ضد فكر ، ابتغاء الفتنة. وما أشرنا إلى المسيح قط إلا بكل ما هو أهل له من حب متأصل فى أعماق النفوس.

وفى كتابينا عن محمد بن عبد الله نبى الإسلام – **سنوات مكة: دراسة نقدية ، وسنوات المدينة: دراسة نقدية** – لم تصدر منا كلمة واحدة تسئ إلى أية ديانة من الديانات يهودية كانت أو مسيحية أو بوذية ، على سبيل المثال.

وعلى عكس منهج "الأب يوتا" فى السَّب واللعن والتجنى بالباطل القائم على الجهل ، بغية بث سموم العداء ونشر الفتنة ، نورد مثلاً صغيراً بسيطاً لموقف النبى محمد عندما استقبل وتعامل مع وفد نصارى نجران. لقد أقاموا صلاتهم وأنشدوا ترانيمهم فى مسجده رغم أنهم لم يؤمنوا!!

هل هناك حب وتسامح وتعاطف أكثر من كل هذا الحب والتعاطف والتسامح؟!!

هذا ما لا يعرفه "الأب يوتا" الذى كرَّس حياته كلها لسبِّ الإسلام ونبى الإسلام وازدراء معتقدات المسلمين وتعمد تشويهها ، وإعلانه أن القرآن هو السبب الرئيسى فى كل جرائم العنف والإرهاب. [1]

وتزداد رعونة "يوتا" عندما يتحالف مع بعض صهاينة اليهود وقلة من صهاينة المسيحيين ويخرجون على الناس بفيلم سينمائى – "براءة المسلمين" – ينفثون فيه السمَّ الذى نشره "يوتا" فحيحاً فى كتاباته من قبل.

---

[1] جريدة "النبأ" ، نفس العدد ، نفس الصفحة.

ونقول: سلوك "الأب يوتا" ومئات من أمثاله ليس بمستغرب ولا يثير فينا أى إحساس بالاندهاش.

لقد شوه أولئك الذين جاءوا من قبله كتابهم "المقدس" ذاته. "يوتا" يسب نبيا من غير دينه. أما الذين سبقوه وسطروا كتابهم "المقدس" فقد سبوا أنبياءهم وملوكهم وأظهروا بعضهم فى صورة حيوانية بشعة لا صلة لها بالنبوة ولا بالملك ولا حتى بالإنسانية فى أبسط صورها.

ولقد اخترنا حكاية "داود" وعرضناها كما صورها اليهود فى "العهد القديم" ، والمسيحيون يؤمنون بكل حرف جاء فيه كما يؤمنون بـ "العهد الجديد".

داود فى "العهد القديم" "ملكٌ" لا نبى، وهو خائن وزان وكاذب وقاتل. هذه الصفات ليست من عندنا ، فنحن لسنا كالأب يوتا عاشق الشتائم والسباب .. نحن أعف وأكبر وأنبل من ذلك بكثير .. إنهم هم كتبة "العهد القديم" .. هم الذين وصفوا داود بكل هذه الصفات فى عرضهم لسيرة حياته التى دنسوها بكل أنواع الكذب والغدر والزنا والدعارة.

ولم يقتصر الدنس على داود وحده ، بل جعلوا ابناً من أبنائه يزنى بأخته ، وابناً آخر ينقلب على أبيه ويحاربه ويهرب داود من وجه ابنه ، وعندها يزنى الابن بكل سرارى أبيه علناً وأمام كل بنى إسرائيل.

هذا ما فعله كتبة "الكتاب المقدس" بشخصية من أعظم الشخصيات على مرّ التاريخ.

"الأب يوتا" إذن ليس فريداً فى تطاوله وسبابه ولعنه وقذفه. إنه واحد من كثرة أساءت حتى لدينها ومعتقداتها.

نحن لا نلوم "يوتا" فهو نبت قومه ، ولا نخوض معه عراكاً هو ليس فى مستواه ولا يستحقه .. فقط نتجاهل بذاءاته ولا نقيم لها وزناً .. كيلا يقال

تعصب ضد تعصب ، وغضب مقابل غضب. حاشا لله. ما كنا يومًا وقود فتنة، وما سمحنا لجاهل أو غاضب أو حاقد أن يدفعنا يوماً إليها.

لقد عرضنا حكاية "داود" عليه السلام كما خطتها أقلام كتبة "العهد القديم" ، لكن بأسلوبنا نحن .. وهو أسلوب يمزج بين الرواية والمسرح ، ولم نُضف من وحى الخيال إلا القليل .. مما تمليه الحرفية الفنية فى المجال الروائى.

وفى ختام هذه المقدمة القصيرة نُذكّر "الأب يوتا" بكلمات قالها من يعتبره "يوتا" سيده وربّه الذى يعبده ويعمل خادماً فى كنيسته.

يقول السيد المسيح:

"طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزَّوْن. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض .. طوبى لأنقياء القلب لأنهم يُعاينون الله. طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يُدْعون" (متى 5: 4-10)

"أقول لكم أحبُّوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مُبْغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم". (متى 5: 45)

هذه هى بعض كلمات السيد المسيح الذى تربى "يوتا" وتعلم فى كنيسته. الكهنة الذين كانوا يقومون بالتدريس لهذا الذى أصبح "الأب" يوتا .. هل علمّوه معنى هذه الكلمات؟ أم أنهم علّموه ولم يتعلم؟

هل قرأ ولم يفهم؟ أم قرأ وفهم وعجز من القيام بتنفيذ تعاليم إلهه؟ أم أن الدين عنده لا يزيد عن كونه تجارة وشطارة ومعارك "دون كيشوتية" من أجل شهرة زائفة وإشباعاً لأحقاد دفينه؟

أم أن "الأب يوتا" واحد ممن قال فيهم السيد المسيح:

"لأنهم مُبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون. فقد تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة تسمعون سمعاً ولا تفهمون. ومبصرين تبصرون ولا تنظرون". (متى 13: 14-15)

ونحن نترك "الأب يوتا" كى يتحمل وزر خطيته. يقول السيد المسيح: "أتركوهم. هم عُميان قادة عميان. وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما فى حفرة (متى 15: 15)

والسلام على من اتبع الهدى.

وجدى الفيشاوى

فيلا الكرمتان. طنطا

2012/9/20

الفصل الأول
صموئيل

الفصل الأول
صموئيل

أيها الإله .. تذكرني؟! لابد وأنك تذكرني ، لأنه لا يمكن أن ينسى خالق من خلق. إن كنت قد نسيتني ، أسألك إذن لِمَ خلقتني؟

هل تنسى يارب كما ينسى البشر .. وتغضب أيضاً كما يغضب البشر؟ .. غاضب أنت .. حلت لعنتك عليَّ؟

لكن ماذا فعلت أنا .. وما الذى أغضبك؟ أى إثم اقترفته يداى وأية خطية أقدمت عليها؟

يارب الجنود .. أنا امرأة حزينة الروح ، مكروبة النفس .. لم اقترف إثماً .. أسكب نفسي أمامك دمعًا وأتكلم من كثرة كُرْبتى!!

يا أيها الإله .. لِمَ أغلقت رحمى وحرمتنى من أن أكون أما لولد؟ ذليلة أنا .. مقهورة .. ضعيفة .. متمنطقة باليأس.

أومن أنك قادر على العطاء .. فاعطنى . وأنك قوى .. فارحم ضعفى. وأنك سام متعال .. فانظر إلى مذلتى. أنت تحيى وتميت .. وتغنى وتفقر .. وترفع أصحاب الحاجات المؤمنين بك إلى كرسى مجدك. أومن!!

أتوسل إليك يارب .. ولا أخاصمك .. فمن أنا حتى أقدر على الخصام؟ أمتك ذليلة فقيرة منكسرة لا تقدر على شئ .. فخذ بيدها وارحم عجزها وأخرجها من قاع الهاوية!!

يا إله كل بنى إسرائيل .. إن نظرت إلى مذلتى وداويت مرارة نفسى وأنبتَّ فى رحمى زرع زوجى ورزقتنى بولد فإنى قسماً بجبروتك يارب الجنود أنذر لك نذراً .. ولدى أعطيه لك كل أيام حياته .. يخدم فى معبدك ويترنم بمجدك ويسكب روحه ليل نهار بين يدى عظمتك وسلطان جلالك ليس لدىَّ الآن ما أقدمه أكثر من توسلاتى وضعفى وعجزى .. ودعائى ودمعى .. علَّنى أجد نعمة فى عينيك.

هكذا تكلمت حَنَّة زوجة ألقانة بن يرُوحام الساكنة مع زوجها وضَرَّتها فى "الرامة". كان لضرتها بنين وبنات مما أفجع قلب حَنَّة وأسال دمعها وجعلها تتوجه إلى الرب بما سبق من توسلات وتضرعات.

كان زوج حَنَّة يحبها ويحنو عليها ويتمزق قلبه حزناً لكربها وضيق نفسها. أخذها تلك الليلة بين ذراعيه وضمها .. أشبعها حباً حتى ارتوى جسدها وسكنت روحها وهدأت نفسها وابتسمت كل ذرة من ذرات وجودها.

أحست حَنَّة أن فى داخلها نورا .. وفى خارجها نورا ... وأنها هى نفسها محمولة على بُساط من نور. ضحكت وهى التى ما عرفت الضحك من قبل. خُيل إليها أنها تسمع صوتاً يتردد صداه فيما حولها: لقد وجدت نعمة فى عينيه .. الرب باركك .. فى رحمك الآن بذرة خير .. ولد يكون له فى مستقبل الأيام شأن.

قبل ان يكمل العام دورته ، ولدت حَنَّة ولداً بدت على وجهه سكينة غير مألوفة فى وجوه الأطفال. خيل إليها أن رأسه الصغير محاط

بهالة من نور. انحنت عليه .. قبلته فى جبهته وفى خديه. همست وهى تركز نظرها عليه:

- أسميك صموئيل .. لأنى سألتك من الرب فأعطى .. أنت عطيه الرب. وبما أن الرب قد نظر إلى مذلة أمته ووهب .. أنا بدورى أهبك له. أنت للرب كل أيام حياتك. متى تّم فطامك آخذك إلى المعبد حيث تقيم .. إلى الأبد.

أرضعت حَنَّة وليدها حتى فطمته. بدأ يقف على قدميه ويمشى. حانت لحظة الوفاء بالنذر. أخذته إلى الكاهن وأصعدت معها ثلاثة ثيران ودقيق وخمر. قالت وهى تقف فى خشوع أمام الكاهن:

- أيها الكاهن "عالى" .. هذا الصبى تضرعت فيه إلى الرب فاستجاب الرب وأعطانى سؤلى. وهأنذا بدورى أهبه للرب وأُصلى بكل فرح قلبى ابتهاجاً بما أعطى ولم يكن لى من نصير غيره أتوسل إليه. لم أخاصمه عندما أغلق رحمى فكل من خاصم الرب ينكسر. صليت فى خضوع واستسلام لمشيئته وانتظرت. فنظر إلىَّ وأخذ بيدى وأخرجنى من أعماق الهاوية.
- سيدى الكاهن: الصبى أمامك وهو عارية للرب أضعه أمانة بين يديك.

سجدت حَنَّة وصلّت. تركت الصبى بين يدى الكاهن. عادت إلى بيتها فى "الرامة" وقد ارتاح قلبها.

***

بدأ الصبى فى الحال خدمته أمام الرب وهو متمنطق بقطعة من كتان إلى أن عملت له أمه جُبَّة صغيرة وأخذتها معها عند صعودها مع زوجها لتقديم الذبيحة السنوية.

ارتدى صموئيل الجبة. وبدا عليه رغم طفولته وقار الكهنة وسمت الأتقياء الصالحين. كان يرقب كل ما يدور حوله فى تأمل دون أن ينطق بحرف وما كان له آنذاك أن ينطق.

راع صموئيل ما يحدث. بنو "عالى" ، وهم أبناء الكاهن ، يتحركون ويسلكون سلوكاً منحرفاً وكأنهم لا يعرفون الرب. كلما قدم إنسان ذبيحة أرسلوا بغلمانهم كى يأخذوا من اللحم ما يريدون .. يأخذونه غصباً قبل حرق الشحم .. والشحم يحرق تقدمةً للرب .. لكنهم استهانوا بحق الرب ولم يكترثوا.

لم يكن باستطاعة "عالى" أن يكبح جماح بنيه لأنه كان قد شاخ جداً وتقدمت به السنون. وتمادى بنوه فى فسادهم وعفنهم وغاصوا فى أقذارهم لدرجة أن عرَّوا النساء وزنوا بهن أمام باب المعبد.

سمع "عالى" بما يصدر من بنيه من أفعال نجسة خبيثة .. نصحهم لكنهم فى شيخوخته لم يكترثوا به. لم يستمعوا لصوت أبيهم. وكان قرار الرب بأن هؤلاء لابد وأن يموتوا موتاً. لقد صدر الحكم على بيت "عالى":

لقد استهنتم بى ودنستم بيتى. أنا أكرم الذين يكرموننى والذين يحتقروننى يصغرون. لن يكبر لك ولد حتى يشيخ. لن يكون فى بيتك شيخ. جميع ذرية بيتك يموتون شباباً. وهذه لك علامة. فى يوم واحد

يموت ولداك شُباناً. ماعدتم تصلحون لإقامة شعائرى والحفاظ على قولى. بدلاً منكم اختار لنفسى كاهناً أميناً طاهراً ينفذ مشيئتى ويعرف قدرى. وقد كتب على كل من يبقى فى بيتك أن يأتى ليسجد له.

***

أما الصبى صموئيل فقد ازداد نضجاً ونمواً وصلاحاً. أحبه الرب فكان لابد وأن يحظى بمحبة الناس.

أخلص صموئيل فى خدمته للرب أمام الكاهن "عالى". ولم يكن حتى تلك اللحظة قد حلم أحلاماً أو تراءت أمامه رؤى. أبداً حتى تلك اللحظة لم يكن قد استمع إلى صوت الرب ولا أعلن له من قبل كلام.

فجأة فى جوف الليل وقد اطفأ صموئيل السراج واضطجع "عالى" فى مكانه على أمل أن ينام – وكان من النادر أن ينام بعد أن حلَّ على بيته غضب الرب – رنَّ فى أرجاء المعبد صوت:

– صموئيل!!

ركض الفتى إلى حيث الكاهن الشيخ:

– هأنذا يا سيدى.

التفت الكاهن إلى صموئيل وهو لايكاد يراه. المعبد مظلم وقد كلت عيناه .. ما عادتا تقدران على الإبصار:

– ماذا يا ولدى؟

– دعوتنى فلبيت.

– أنا لم أدعك يا ولدى. عد إلى مكانك واضطجع.

عاد الصبى إلى مكانه وقد اعترته حيرة. متأكد هو أنه قد استمع إلى الصوت .. والكاهن يؤكد أنه ما نطق. ليس بإمكانه شئ. عليه أن يهدأ ويستريح.

- صموئيل!!

رنَّ الصوت ثانية فى وضوح لا يمكن إنكاره وقد ملأ المكان كله. أسرع الفتى إلى الكاهن ووقف على مقربه منه.

- هأنذا يا سيدى. دعوتنى فلبيت.

وجاءه صوت الكاهن بطيئاً هادئاً:

- أنا لم أدعك يا ولدى. ارجع واضطجع.

عاد الصبى إلى حيث كان وقد بدأ جسده يرتعد.

- صموئيل!!

جاءت هذه المرة قوية أخأذه آمرة. انتفض الصبى وهرول إلى حيث الشيخ.

- هأنذا لأنك قد دعوتنى. لا أشك يا سيدى لأنى قد سمعت. أنا سمعت فلبيت.

الصبى صادق لا يكذب. هو قد نودى بالفعل وقد سمع. لقد حانت اللحظة الفاصلة فى حياته. هكذا فهم الشيخ. لذلك قال:

- اذهب إلى مكانك يا بنى واضطجع. ويكون إذا دعاك الصوت تقول تكلم يارب لأن عبدك سامعك.

فى طاعة مأخوذة بالاندهاش عاد صموئيل إلى مكانه واضطجع. لكن ما هى إلا سويعات أسرع مما يتوقع ، حتى انتفض من رقدته واقفاً. لقد عاد الصوت:

- صموئيل .. صموئيل!!

خرَّ صموئيل ساجداً ثم قام. قال:

- تكلم يارب عبدك يستمع.

أخبر الرب صموئيل أنه قد حكم بالقضاء على بيت "عالى" إلى الأبد بسبب الشر الذى اقترفوه واللعنة التى جلبوها على أنفسهم وعلى "عالى" نفسه لأنه لم يردعهم ويردهم عن الإثم. لن يقبل أى تكفير عن إثمهم .. لأنه هكذا أقسم الرب.

***

حاول صموئيل أن ينام ولم يستطع. إنه لأول مرة يستمع إلى كلمات الرب. ما زاده خوفاً ورهبة هو ذلك الحكم الذى صدر على بيت الكاهن الذى تولى أمره منذ الصغر. ماذا يقول لـ "عالى" فى الصباح؟ هل يخبره بأمر الرؤيا فيزيده هماً على همومه شيخوخته .. أم يلتزم الصمت ولا يتكلم؟

لم يمهله الكاهن. ناداه:

- صموئيل.

- هأنذا سيدى بين يديك.

صمت الكاهن برهة على أمل أن يتكلم صموئيل من تلقاء نفسه لكن صموئيل لم ينطق. عندها سأله الكاهن:

- ما الكلام الذى كلمك به الرب؟ لا تُخْفِ عنى.

تحدث صموئيل واستمع "عالى" فى هدوء حتى إذا ما أنهى صموئيل حديثه همهم الكاهن الشيخ فى استسلام:

- إنها إرادة الرب. إرادة الرب نافذة وقضاؤه محتوم لا فرار منه. هو الرب ليفعل ما يحسن فى عينيه.

***

مات ابنا "عالى" فى حرب ضد الفلسطينيين انهزم فيها إسرائيل. سقط منهم ثلاثون ألف رجل لأن الضربة كانت عظيمة جداً. وأخذ الفلسطينيون تابوت الرب مما يدل على أن الهزيمة كانت ساحقة. لكنهم أعادوه فيما بعد لأنهم لم يكونوا فى حاجة إليه ولم يكن ذا قيمة بالنسبة لهم.

سمع الكاهن "عالى" بالكارثة وكان قد بلغ الثامنة والتسعين من عمره. لم يتحمل وقعها. سقط عن الكرسى إلى الوراء فانكسرت رقبته ومات.

كان صموئيل قد كبر فى بيت الرب وعُرف فى كل إسرائيل بالاستقامة والورع. ذاع بين الناس أنه قد اؤتمن نبياً للرب. كان كلامه عندما يتكلم موجهاً إلى جميع إسرائيل. وقضى صموئيل لإسرائيل كل أيام حياته فى أماكن كثيرة لكنه كان دائماً ما يعود إلى "الرامة" لأن بيته كان هناك. وساعده فى أمر القضاء ولداه "يوئيل" و "أبيًا" خصوصاً بعد أن شاخ وتقدم فى السنين. كانا يقومان بالقضاء فى "بئر سبع". لكنهما للأسف لم يسيرا فى طريق التقوى والطهر كما فعل أبوهما ، بل جريا وراء الربح وقبلا الرشوة وأفسدا القضاء.

الذى يملك عليهم يأخذ خيرة بنيهم وبناتهم كى يكونوا له خدماً .. ويأخذ حقولهم وكرومهم ويعشر زروعهم وغنمهم .. ويتخذهم هم أنفسهم عبيداً له .. عندها يصرخون من ظلم الملك الذى اختاروه لأنفسهم .. ولن يستجيب لهم الرب.

الفصل الثانى
شَـــاوُلُ

الفصل الثانى
شَـــاوُلُ

من بنيامين كان شاول بن قيس .. شاب حسن المنظر جميل الصورة .. لم يكن فى إسرائيل من هو أكثر منه بهاءً وحُسناً.

ضلَّت أتن قيس. طلب من ولده شاول أن يأخذ معه غلاماً ويخرج للبحث عن الأتن حتى يجدها. انتقل شاول من أرض إلى أرض بحثاً عن أتن أبيه فلم يجدها. **قال لغلامه:**

- من الأفضل أن نعود حتى لا يترك أبى البحث عن الأتن ويبدأ فى البحث عنا.

قال الغلام:

- يقولون إن رجل الله قد حلَّ بهذه الأرض فلماذا لا نذهب إليه ونسأله علَّه يعيننا على ما نحن فيه.
- ماذا نقدم لرجل الله إذا ما لقيناه وقد نفد الخبز وليس معنا هدية؟
- معى قطعة فضة أعطيها له فيخبرنا أى طريق نسلك.

اتجه شاول وفتاه إلى المدينة. وكان صموئيل قد وصل إلى تلك الأرض .. أرض "صوف" .. لأنه كان يوم ذبيحة للشعب على المرتفعة وكان عليه أن يبارك الذبيحة قبل أن يأكل الشعب.

تحدث الرب إلى صموئيل فى إحدى رؤاه قبل مجئ شاول بيوم واحد. قال الرب:

- غداً فى مثل هذا الوقت أُرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين فامسحه رئيساً لشعبى .. ليكن عليهم ملكاً.

قال صموئيل:

- كيف يكون عليهم ملك ايها الرب ولا ملك إلا أنت؟
- طلبوا وأنا استجبت.
- أخطأوا.
- لتكن خطيئتهم على رؤوسهم. افعل ما تؤمر به.
- مشيئتك تكون أيها الرب.

التقى صموئيل بشاول وفتاه .. وبوضوح سمع صموئيل صوت الرب يقول:

- هذا هو الرجل الذى كلمتك عنه.

سأل شاول صموئيل عن الرائى .. أى عن رجل الله:

قال صموئيل:

- أنا هو. اصعدا أمامى إلى المرتفعة فتأكلا معى .. وفى الصباح ترحلان. أما الأتن الضالة منذ ثلاثة أيام فلا تنزعجا من أجلها لأنها وُجدت.

أجلس صموئيل شاول وغلامه فى مكان الصدارة بين المدعوين. وأكل شاول مع صموئيل فى ذلك اليوم.

عند الفجر قام شاول وغلامه كى يخرجا من المدينة وطاف فى صحبتهما صموئيل. **قال صموئيل لشاول:**

- مُرْ غلامك يسبقنا قليلاً أما أنت فقف معى هنا كى أُسْمعك كلام الله.

بعد أن أصبحا وحدهما ، أخرج صموئيل قنينة دهن وصب على رأس شاول. هكذا أصبح شاول مسيحاً ورئيساً على ميراث الرب. وقد أنبأه صموئيل أنه فى طريق عودته سوف يصادف زمرة من الأنبياء نازلين من مرتفعة وأمامهم رباب ودف وعود وهم يتنبأون .. عندها ستحل عليه روح الرب ويتنبأ هو أيضاً .. وبذلك يتحول إلى رجل آخر.

وحدث ما أخبره به صموئيل .. وتنبأ شاول وهو بين الأنبياء وأصبح رجلاً آخر .. لدرجة أنه عند عودته دُهش كل الذين يعرفونه:

- ماذا حدث لابن قيس؟
- إنه يتنبأ!!
- أشاول أيضاً بين الأنبياء؟ .. إن هذا لأمر عُجاب.

جمع صموئيل الشعب .. كل أسباط إسرائيل. أخبرهم بأن الرب قد استجاب لما طلبوه .. جعل عليه ملكاً .. أمسك بيد شاول وكانت هامة شاول أطول من هامات كل الشعب.

قال صموئيل:

- انظروا .. هذا هو الذى اختاره الرب ملكاً. إنه ليس مثله فى جميع الشعب.

هتف الشعب كله هتافاً ارتجت له المرتفعات واهتزت الروابى:

- ليحى الملك!!

هكذا أصبح شاول ملكاً .. أول ملوك بنى إسرائيل .. اختاره الرب تحقيقاً لرغبة الشعب .. ومسحه صموئيل بالدهن المقدس وأصبح مسيح الله.

وخاطب صموئيل كل إسرائيل قال:

- هأنذا قد سمعت لصوتكم فى كل ما قلتم لى وملكت عليكم ملكاً. والآن هو ذا الملك يمشى أمامكم. أما أنا فقد شبت وشخت وهو ذا أبنائى معكم .. لقد فعلتم الشر لكن لا تحيدوا عن الرب بل اعبدوه بكل قلوبكم .. لأنه قد شاء أن يجعلكم له شعباً. أما أنا فلن أكف عن الصلاة من أجلكم وعن تعليمكم كل ما هو صالح ومستقيم.

***

أمر الرب شاول ، عن طريق صموئيل ، أن يضرب عماليق .. ذلك لأن عماليق وقفوا فى طريق بنى إسرائيل عند صعودهم من أرض مصر. وإله إسرائيل كما يعرفه الجميع إله منتقم جبار يهوى القتل وإراقة الدماء .. وهو يطالب شعبه أن يكون مثله فى قسوته وجبروته ودمويته .. بلا رحمة أو شفقة.

صدر الأمر الصريح المباشر من الإله المقاتل الذى يسمونه "رب الجنود":

- "فالآن أذهب واضرب عماليق وحرموا كل ماله ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة. طفلاً ورضيعاً. بقرا وغنماً. جملاً وحماراً".

أعدَّ شاول جيشه تنفيذاً لأمر الرب. أكثر من مئتى ألف مقاتل كان على رأسهم هو وابنه يوناثان. وكان يوناثان من الأبطال المعدودين فى إسرائيل.

فاجأ شاول عماليق. ضربهم ضربة ما كانوا على استعداد لاتقائها أو تحملها أو الفرار منها. تمت هزيمتهم وكانت الهزيمة مؤلمة مدمرة ساحقة. قتل منهم كثرة ولم يستطع أحد الفرار لأن شاول كان قد أحكم الحصار. أما ملك عماليق – "أجاج" – فقد تم الإمساك به وجيئ به مقيداً إلى حيث شاول وكبار قادته.

أمر شاول أن يُحرَّم جميع الشعب بحد السيف. لكنه أصدر عفواً عن أجاج. كما أمر بعدم إعدام خيار الغنم والبقر والخراف.

هنا يثور "رب الجنود" .. إله إسرائيل .. لقد عصاه شاول ولم ينفذ كل أوامره. هذا الذى جعله ملكاً لا يقيم وزناً لكلام الرب ولا يخشى غضبه. وكان كلام الرب لصموئيل:

– ندمت لأنى قد جعلت شاول ملكاً ، لأنه لم ينفذ أوامرى ولم يُقم كلامى.

بكَّر صموئيل فى الصباح وأسرع للقاء شاول. عنفه على سوء ما فعل. لكن شاول دافع عن نفسه قائلاً:

– لقد أقمت كلام الرب.

– أى كلام للرب ذلك الذى أقمت؟

– لقد أمر ففعلت.

- أمر ولم تفعل. وإن كان قد خُيل إليك أنك فعلت فأنت واهم. هذا معناه أنك لم تفهم.
- أفهمنى يا رجل الله.
- صوت الغنم هذا وصوت البقر؟
- ماذا عنه؟
- إنه دليل على أنك لم تنفذ كلمات الرب.
- إنها سلب من العمالقة .. خيار الغنم والبقر. عفا عنها الشعب كى تقدم قرباناً للرب.
- هل هذا ما أُمرت به؟ لقد أرسلك كى تفنى كل عماليق .. رجالاً ونساءً وأطفالاً .. لا تبقى على أحد. حتى الماشية تُقتل كلها بقراً وغنماً وجملاً وحماراً .. لا تبقى منها شئ. وهأنذا أسمع صوت البقر والغنم وتدعى أنك أبقيت عليها من أجل الرب. وعند الرب الاستماع أفضل من الذبيحة والإصغاء أفضل من لحم الكبتش.
- لقد أخطأت فاغفر لى خطيتى.
- ليس أنا الذى يغفر. وخطيتك أكبر مما ذكرت.
- كيف؟
- هل أفنيت كل عماليق بحد السيف؟
- فعلت.
- يمكن أن تكذب علىَّ. لكن كيف تكذب على الرب؟
- يا رجل الله صدقنى أنا لا أكذب.

- كيف أصدقك والواقع يكذب ما تقول.
- أى واقع هذا؟
- هل قتلت ملك عماليق؟
- عفوت عنه.
- هكذا عصيت.
- ما كنت أدرك أن العفو معصية فى شريعة الله.
- العفو رفض لكلام الرب. الرب قال: أبد عماليق. كل عماليق. وكان عليك ألا تبقى على أحد.
- صلى من أجلى.
- لقد رفضت كلام الرب فرفضك الرب.

***

استدار صموئيل كى يذهب فى طريقه ويمضى. أمسك شاول بطرف جبته فتمزق. التفت صموئيل إلى شاول وهو يشير إلى طرف الجبة المتمزق. قال:

- كهذا المزق يمزق الرب عنك اليوم مملكة إسرائيل ويعطيها لمن هو خير منك.

توقف صموئيل لحظة. بعدها صاح:

- أين أجاج ملك عماليق؟
- آمر بإحضاره. يكون أمامك فى الحال.

تقدم أجاج فرحاً نحو رجل الله وهو يظن أن الكاهن سيباركه.

قال وهو ينحنى كى يقبل يد رجل الله:

- الآن حقاً اشعر أن قد زالت مرارة الموت.

وكم كانت دهشته مرتعبة عندما رنَّ فى أذنيه صوت الكاهن قوياً زاعقاً.

– كما أثكل سيفك النساء كذلك تُثْكل أمك بين النساء. أعطونى سيفاً.

قدم شاول السيف إلى رجل الله. اقترب الكاهن من أجاج. ورغم تقدمه فى السن وما قد يصاحب ذلك من ضعف ووهن.. أطاح صموئيل برأس أجاج بضربة واحدة .. قدم دمه قرباناً لإله إسرائيل.

بعدها انصرف صموئيل وانقطعت الصلة بينه وبين شاول تماماً .. لم يعد لرؤيته إلى يوم موته. لقد غضب من شاول لأن الرب غضب.

الفصل الثالث
ظهـــور داود

الفصل الثالث
ظهور داود

أمر الرب صموئيل ألا يُعوِّل على شاول. لقد انتهى أمره ولن يملك على إسرائيل. لابد من اختيار من هو خير منه كى يملك بعده. وصدر الأمر الربانى إلى صموئيل:

- اذهب إلى يسَّى البيتلحمى .. ستجد بين بنيه من يصلح ملكاً.
- أأذهب لاختيار آخر وشاول على العرش؟
- كاهن الرب لا يعرف إلا الطاعة.
- إن سمع شاول يقتلنى.
- أتخشى شاول ولا تخشانى.
- غفرانك..
- خذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت أذبح للرب.
- ثم ماذا؟
- ادع يسى إلى الذبيحة هو وأولاده. عندها سأخبرك بمن اخترت كى تمسحه بالدهن ، وسيكون هو المختار ملكاً.

توجه صموئيل إلى بيت لحم تنفيذاً لأوامر الرب. ارتعد شيوخ المدينة عندما رأوه. لم يتعودوا زيارته. لم يستقبلوه من قبل. تساءلوا:

- أسلام مجيئك؟ هل جئت لخير؟ أم جئت لتخبرنا أن لعنة الرب قد حلت على بيت لحم؟

بدت على شفتى الكاهن ابتسامة صغيرة غامضة. قال:

- جئت أذبح للرب.
- هذا كل ما فى الأمر؟
- نعم. تقدسوا وتعالوا معى إلى الذبيحة. لا تنسوا دعوة يسَّى وكل بنيه.

بدأ صموئيل المهمة التى ذهب إلى بيت لحم من أجلها. أخذ ينظر إلى أولاد يسَّى الواحد تلو الآخر. عندما رأى أليآب وكان طويل القامة مهاب ، قال: هذا هو مسيح الرب. إن أمام الرب الآن مسيحه.

لكن الرب رفض أليآب:

- يا صموئيل لا تنظر إلى منظره وطول قامته لأنه ليس كما ينظر الإنسان. الرب ينظر إلى القلب ويختار.

عبَّر يسَّى بنيه السبعة أمام صموئيل. لكن الرب لم يختر أياً منهم. اعترت الحيرة صموئيل. سأل:

- هل هؤلاء هم أولادك جميعاً؟ هل كملوا الغلمان؟
- لا. لم يتبق إلا الصغير. وهو الآن يرعى الغنم.
- أرسل من يحضره. فلن أظل هنا حتى يحضر من تلقاء نفسه.

أطاع يسَّى أمر رجل الله وأرسل من أحضر أصغر الأبناء. وعندما حضر أخذ يتأمل الجميع بعينين نافذتين فيهما حلاوة وكان حسن المنظر سأله صموئيل:

- ما اسمك يا غلام؟

أجاب الصبى فى عذوبه:

- داود.

وصدر الأمر الربانى فى الحال:

- قم امسحه لأن هذا هو!!

ومنذ تلك اللحظة حلَّ روح الرب على داود. لقد أصبح هو المختار ملكاً كى يجلس فى مستقبل الأيام على عرش إسرائيل. عاد صموئيل إلى "الرامة" بعد أن أدى مهمته.

***

حلَّ غضب "رب الجنود" على شاول بسبب عصيانه .. فارقه روح الرب وحل محله روح ردئ. تغيرت أحواله وساءت وكلما بغته الروح الردئ فقد سيطرته على نفسه وهاج فى أهل بيته وطاح فيمن حوله وكأنه قد فقد عقله. تشاور الشيوخ من حوله عما يجب عمله. هم لا طاقة لهم ولا قدرة على مواجهة ذلك الروح الردئ المقيت. توصلوا فى النهاية إلى حلٍّ ارتأوا أن فيه خلاص الملك .. أو على الأقل محاولة للخلاص:

- ليأمر الملك عبيده أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الردئ من قبل الله أنه يضرب بيده فتطيب.

طابت الفكرة للملك. سأل:

- من منكم يعرف رجلاً يحسن الضرب بالعود ويجيد .. فتهدأ مع عزفه النفس وتطمئن الروح؟

أجاب واحد من الحضور:

- يسَّى البيتلحمى له ابن يبدع فى هذا المجال ويجيد .. وهو فتى جميل فصيح. لكنه يقضى جلَّ وقته فى رعى غنم أبيه.

فى الحال أرسل شاول إلى يسَّى:

- أرسل إلىَّ داود ابنك الذى مع الغنم. أنا فى حاجة إليه.

ذهب داود إلى شاول. وقف أمامه. تقدم خطوة. كانت تلك الخطوة هى أولى خطواته نحو كرسى العرش. تأمله شاول. كان جميل المنظر حسن السمت تبدو عليه سيماء شجاعة ونبل. أحبه شاول فى الحال وكان انطباعيًا من السهل أن يتأرجح بين الحب والكراهية وينتقل من النقيض إلى النقيض فى لحظات. أرسل إلى يسَّى يبشره بأن داود قد نال رضاه .. قد وجد نعمة فى عينيه .. وقد اختاره ليكون دائماً بين يديه.

حلَّت الروح الرديئة على شاول. عندها أمسك داود بالعود وضرب. بدأ مهمته بتمكن واقتدار .. وظل فى عزفه يجدد لحنه ويتفنن فى إبداعه حتى هدأت نفس شاول وارتاح. بدا له أن عزف داود قد خلصه من الروح الردئ.

لم تكن لداود من مهمة أخرى سوى الضرب بالعود .. اشتهر بأنه ضارب العود الذى لا يباريه أحد. لكن مستقبل الأيام أثبتت بعد ذلك أن داود يملك من مصادر القوة ما هو أعظم من ذلك بكثير.

***

أعلن شاول أنه قد قرر ضرب الفلسطينيين. قال شاول لرجال إسرائيل:

- الفلسطينيون كانوا ومازالوا حجر عثرة فى طريق إسرائيل. علينا أن نبيدهم كما أبدنا من قبل شعب عماليق.

رد أحد كبار قادة الجيش:

- لكنهم يا مولاى يعيشون حتى الآن فى سلام. لم يتعرضوا لنا وما مسّنا أحد منهم بسوء.

قال شاول فى انفعال:

- لا تنخدع بما يبدونه من هدوء أو ينادون به من العيش جوارنا فى سلام. إنهم يمكرون. ينتظرون اللحظة التى تناسبهم هم وعندها نؤخذ على حين غرة فى حرب قد تؤدى إلى استئصال بنى إسرائيل. هل ننتظر حتى نُباد بأيدى هؤلاء الغُلْف؟

قال أبْنَيْر قائد الجيش:

- سيدى يبالغ فى مخاوفه. الفلسطينيون لا يملكون من القوة ما يمكنهم من الإقدام على ذلك. إنهم يدركون جيداً شدة بأس شعب الله المختار.

تمسك شاول برأيه. خرج على رأس الجيش وتبعه الجميع. لم يتخلف أحد فهو بالنسبة لهم مسيح الله الذى لا يمكن عصيان أمره.

علم الفلسطينيون بما انتواه شاول فخرجوا هم أيضاً للقتال دفاعاً عن أنفسهم وعن أرضهم. اصطف الفريقان فى مواجهة بعضهما البعض .. كل بالقرب من جبل وبينهما الوادى.

لم يكن بالفلسطينيين ميل إلى إراقة الدماء. هم لم يطلبوا الحرب ، لكن فرضها عليهم شاول ولن يهربوا من مواجهته. تشاور كبارهم كيف السبيل إلى تجنب قتل المئات وربما الآلاف. توصل الحكماء منهم إلى رأى:

- ليخرج إليهم أحد أبطالنا المعدودين المشهود لهم بالبأس فى ساحات القتال. يطلب المبارزة على أن ينازله أشد أبطال إسرائيل بطشاً وأكثرهم قوة. فإن قتله رجلنا أصبحوا هم عبيداً لنا .. وإن قتلوه هم .. عندها يتغير الحال.
- نكون نحن عبيداً لهم؟
- لا. هذا لن يحدث بأيه حال من الأحوال. سيخرج لهم جُلْيات. وأنتم جميعاً تعرفون من هو جليات.
- إنه لم يهزم فى مبارزة قط.
- ولن يهزم أبداً. لا تخافوا.
- ما خفنا من هؤلاء. وما كنا أبداً لنخاف.
- إذن فليخرج إليهم جليات. وأنا على تمام التأكيد أنهم لمجرد رؤيته سيصابون بالرعب وقد ينهزمون قبل أن تراق نقطة دم واحدة.
- إذن جهزوا جليات للخروج.

خرج جليات مبارزاً. كان طويل القامة ممشوق القد. على رأسه خوذة من نحاس وعلى جسده أكثر من درع من ثقيل النحاس. أما رمحه فكان يكفى لبث الرعب فى نفس الناظر إليه. وبيده كان سيف من النوع النادر الذى لا يستطيع حمله عدة رجال.

تبختر جليات بين الصفوف. ضرب بسيفه الهواء فكان له دَوِىّ. نظر إلى صفوف إسرائيل فى استخفاف واستعلاء صاح فى صوت كالرعد:

- لماذا تصطفون هكذا وتقفون بلا حراك وكأنكم تماثيل من حجر؟ أما خرجتم للحرب .. أم خفتم وجبنتم وندمتم بعد الخروج؟ هيا اختاروا من أنفسكم من يستطيع القتال لو كان بينكم حقاً من يستطيع .. لينازلنى إن لم ترتعد ساقاه ويسقط قبل أن يصل إلىَّ. هيا يا عبيد إسرائيل .. أعطونى رجلاً منكم يبارزنى فأقتله لأنه لا مصير لكم إلا الموت بحد هذا السيف. ألا تسمعون؟ .. ألن يتحرك منكم أحد؟ .. إذن لماذا خرجتم .. يا هُباء .. يا عدم .. يا قبض الريح؟!!

لما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام جليات ارتاعوا وخافوا جداً. هل بيننا من يقدر على أن ينازله؟ تساءلوا. وظلوا يتساءلون أربعين يوماً ولا يجرؤ أحد منهم على الخروج .. وجليات يُعيِّرهم ويُعبِّر عن احتقاره لهم واشمئزازه منهم صباح مساء طوال كل تلك الأيام.

كان لابد لشاول أن يجد مخرجاً يحافظ به على كبريائه وكبرياء قومه. لا يمكن أن يستمر هذا الوضع أكثر من ذلك وإلا ضاعت هيبة إسرائيل إلى الأبد. تحدث الملك:

- إن خوف جميع رجال إسرائيل من هذا الرجل وهروبهم منه لابد وأن يغضب رب الجنود. أنسيتم أننا حملة تابوت الرب وأن التابوت بيننا الآن .. وأن الرب ينظر وينتظر؟ أتودون أن تحل بكم نقمته فيبيدكم قبل أن يمسكم هذا الفلسطينى بذبابة سيفه؟ لابد وان يخرج إليه رجل. لن نتركه كى يعير إسرائيل إلى الأبد.

لم يتحرك أحد. سيطر الخوف على الجميع. لا طاقة لهم بجليات ولا حتى بمن هو أقل من جليات. يخافون القتال الملتحم. لم يتعودوا إلا القتال بالخديعة أو من وراء أماكن محصنة .. أما هكذا .. وجهاً لوجه .. فالأمر بالنسبة لهم مرعب إلى درجة المستحيل.

نظر إليهم الملك في شرود وذهول. حاول أن يثير فيهم غريزة الجشع المتوارثة من أيام يعقوب المسمى بإسرائيل .. تحفيزاً لهم. **قال:**

- الذى يخرج إليه ويقتله يغنيه الملك ويعطيه بنته زوجة له ويجعل بيت أبيه حراً في كل إسرائيل.

رغم كل هذا الإغراء الذى يسيل له اللعاب ، لم يتحرك أحد. جبان شعب إسرائيل في حالة القتال الملتحم.

هنا حدث ما لم يكن في الحسبان .. ما لا يمكن أن يصدقه أحد. تقدم داود. **قال في هدوء وثقة وثبات:**

- أنا أخرج إليه أيها الملك!!

صاح شاول وهو يشير بطرف أصبعه إلى داود:

- أنت؟!

بنفس الهدوء أجاب داود:

- نعم.. أنا.

سرت همهمات بين القادة والكبار. قال أحدهم وهو لا يكاد يصدق:

- هذا الصبى يخرج للقاء جليات؟!

ردَّ آخر:

- لقد اختار الموت مبكراً قبل أن يستمتع بالحياة.

علّق ثالث:

- الصبى بعقله لوثة. إنه لا يدرك معنى ما يقول.

تقدم أبْنَيْر قائد الجيش. سجد أمام الملك. قال:

- سيدى لا تستمع لقول هذا الغلام. إنه لكل تأكيد لا يدرك معنى ما يقول.

لكن شاول لم يلتفت إليه. ركز نظره على داود. سأل:

- أتستطيع أن تقاتل ذلك العملاق الذى يُعيِّر إسرائيل صباح مساء؟ أتملك مقدرة الخروج إليه؟

بنفس الثقة والثبات تحدث داود. قال:

- لا يسقط قلبك أيها الملك بسببه .. ولا قلب أى إنسان آخر. أنا أحارب هذا الفلسطينى وأقتله.
- هل حاربت من قبل؟
- لا.
- إذن كيف تخرج للقتال وأنت غلام بلا تجربة حرب وهو رجل حرب مشهود له منذ صباه.
- عبدك يقدر أيها الملك!!
- كيف؟
- كنت أرعى غنم أبى وجاء أسد مع دب وأخذ شاة من القطيع. فخرجت وراءه. ولما قام علىَّ أمسكته من دقنه وضربت به الأرض فقتلته وألحقت به الدب. قتل عبدك الدب والأسد جميعاً. مصير هذا المتبجح المتطاول على إسرائيل سيكون كمصيرهما

لأنه عيَّر صفوف جند الله الحى. والرب الذى أنقذنى من يد الأسد ومن يد الدب هو ينقذنى من يد هذا المستأسد. صدقنى وضع ثقتك فى الرب. أنا له أيها الملك.

لم يكن أمام الملك اختيار. لم يتقدم من بين صفوف كل إسرائيل سوى هذا الصبى وكله إيمان وثقة واقتدار. قال الملك:

- اذهب وليكن الرب معك. لكن دعنا نُعِدُّك قبل أن تخرج للقتال.

ألبسوا داود من الثياب ما يتناسب مع ظروف القتال. جعلوا على رأسه خوذة من نحاس وقلدوه درعاً وسيفاً. حاول داود أن يمشى ويختبر سرعة حركته بثيابه الجديدة ودرعه وسيفه. لكنه وجد أن كل ذلك لا يناسبه. قال:

- لا أقدر.

سأله الملك:

- لا تقدر على ماذا؟

- على القتال هكذا. لا أقدر على المشى بها.

نزعها داود عنه وهو يقول:

- كما قاتلت الأسد بثوبى الوحيد الذى لم يكن علىَّ غيره وقتلته .. وكما قتلت الدب .. سأقتل ذلك الفلسطينى المتكبر المتطاول على إسرائيل.

خرج داود إلى الفلسطينى ولم يكن بيده سوى عصاه وخمسة حجارة مُلس انتقاها من الوادى ووضعها فى جرابه .. وبيده الأخرى كان مقلاع.

اقترب داود من جليات. كان يتقدم فى غير وجل وعيون كل إسرائيل ترصده. نظر جليات إلى ذلك الذى يتقدم نحوه فى اندهاش سرعان ما تحول إلى احتقار. هذا الغلام الأشقر جميل المنظر .. ماذا أتى به إلى ساحة القتال؟ ألَمْ يكن من الأسلم والأسعد له أن يهنأ بالجلوس إلى جوار أمه؟

- ماذا تفعل هنا يا هذا الصبى؟ سأل جليات داود فى ازدراء.

نظر داود إلى جليات بثبات. شعر بأن روح رب الجنود قد حلَّت فى داخله. قال:

- أنا لست صبياً. أنا هنا رجل حرب فاستعد للنزال.

قهقه جليات. كان لصوت قهقهته دوى أثار الرعب فى قلوب إسرائيل. قال:

- أنا لا أحب أن أقتل أمثالك من الصبية. عد يا غلام إلى حضن أمك وقبل أن ترحل أطلب ممن أرسلك أن يخرج هو نفسه للقتال لو كان يملك شجاعة الخروج. لقد أرسلك هؤلاء الجبناء المرتعدون للموت.

صرخ جليات بأعلى صوته:

- يا جبناء إسرائيل .. أربعون يوماً وأنتم أمامى ترتعدون ولا يجسر أحدكم على الخروج. ما هذا الصبى الذى أرسلتموه كى تختبئوا وراءه يا سفهاء. أخرِجُوا إلىَّ ملكَكُم كى أجعل لحمه طعاماً لطيور السماء ووحوش البرية. ترسلون إلىَّ فتى بعصى وكأنه خارج كى يهش بعصاه على غنمات؟ أين جبابرتكم من

ذوى البأس يا كذابون .. يا أدعياء. ملعونون أنتم وآلهتكم التى تعبدون .. لو كانت آلهة حقاً.

انفعل جليات .. أرغى وأزبد .. ونسى تماماً ذلك الواقف فى مواجهته. لم يعد لداود بالنسبة له وجود.

انتهز داود فرصة هيجان جليات. مدَّ يده إلى الجراب وأخذ حجراً ورماه بالمقلاع. أصاب الحجر جبهة جليات. لقد أخذه داود غدراً. لم يواجهه سيفاً بسيف أو درعاً بدرع .. لم يصرعه بيديه كما ادعى أنه قد فعل بالأسد والدب. انتهز فرصة استغراق جليات فى سب إسرائيل ورماه بحجر.

كانت رميه الحجر بالمقلاع قوية ومباغته. فقد جليات توازنه. سقط على وجهه إلى الأرض. وبجانبه سقط سيفه. أسرع داود بخفة أبناء الرعاة وهم يجرون وراء الغنم. التقط سيف جليات. قتله بسيفه. اجتز رأسه.

لماً رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد قتل دون قتال ، اعترتهم الدهشة وعمهم الذهول. ما تعودوا أساليب المكر والغدر فى القتال.

صاح كبارهم:

- ما هذا بيومنا. انسحبوا حتى نحدد نحن يوم وساعة معركة نرغمهم فيها على القتال.

هلّل الإسرائيليون بدأوا السلب والنهب والسرقة وقد خيل إليهم أنهم حاربوا معركة هائلة وانتصروا. ما دار بخلدهم أن الفضل يرجع لرمية حجر بيد صبى جاء من بين الرعاة .. من خلف الغنم.

أخذ داود رأس جليات. إنها بالنسبة له ثروة. لقد فعل المستحيل بالنسبة لإسرائيل. وهو بالتأكيد كأى إسرائيلى يريد الثمن.

أمام شاول وقف داود وبيده رأس جليات. سأله الملك:

- ابن من أنت يا غلام؟

وكأنه قد نسى أن هذا هو الضارب بالعود الذى يلازمه. لم يدر بخلده أن الصبى الضارب بالعود يقدر على إحداث ما حدث.

أجاب داود:

- ابن عبدك يسَّى البيتلحمى.
- أنت .. أنت الذى قتل هذا؟

وأشار بيده إلى رأس جليات.

- نعم يا سيدى. إنه هو أنا.
- هذا أمر عجاب. كيف قدرت؟
- عندما تحل روح الرب بالإنسان يقدر.
- صواب ما قلت يا فتى. اعطوه ملء كفيه ذهباً.
- لا يا مولاى. ما جئت برأس الجبار إلى هنا كى أطلب ذهباً أو فضة.
- ماذا تريد إذن؟ ضيعة من الضياع .. عدة قطعان من الغنم؟
- يبدو أن مولاى قد نسى وعده.
- أى وعد يا غلام؟

- أن من يقتل جليات يكون صهراً للملك .. تكون ابنة الملك له زوجة.
- آه. تذكرت. لكن .. نحن فى حاجة إلى بعض الوقت كى نتدبر هذا الأمر.

***

بعد نهب بيوت الفلسطينيين وسرقة كل ما طالته أيديهم .. انتشرت الصيحات فى جميع مدن إسرائيل .. فرح وغناء ورقص. خرج الجميع للقاء شاول بدفوف وفرح. غنت النساء لشاول. لكنهن غنين لداود بفرح أكثر .. شجاعة داود طغت على سلطان شاول.

***

شاول وحده أمام كرسى عرشه فى قاعة ملكه .. يسير جيئة وذهاباً وقد عقد يديه خلف ظهره. يتكلم بصوت مسموع وكأنه يحدث نفسه:

- ما هذا الذى يحدث أمامك ومن حولك يا ملك إسرائيل؟ نساء إسرائيل كلهن يغنين لداود .. يمجدنه .. يعطينه ربْوات .. لا يعطينك من التمجيد ما أعطين لداود .. ورجال إسرائيل جميعاً مفتونون به .. وكأنه هو مبعوث الرب وعلى يديه هو فقط كان الخلاص. (يصمت قليلاً ثم يواصل الحديث).

رُوَيْعى الغنم طلب ابنة الملك زوجة له برأس قتيل. من يدرى .. ربما يتطلع إلى ما هو أكثر .. إلى هذا الكرسى ربما يطمع فى الجلوس على عرش إسرائيل. طموحه قد يصبح خطراً

.. لابد وأن يوعد فى مهده. عيوننا سترقبه .. وعندما نقرر القضاء عليه لن يكون له من خلاص.

***

وكان فى الغد أن الروح الرّديَّ من قبل الرب اقتحم شاول وجُنَّ فى وسط البيت. أخذ داود يضرب بالعود كما كان يفعل دوماً حتى يهدأ المالك. لكن هياج شاول إزداد .. جُنَّ جنونه بصورة غير مألوفة من قبل. وكان بيده رمح. وفى ثورة جنونه ضرب داود بالرمح. خُيل إليه أن فى هذه الضربة خلاصه وخلاص مملكته من رويعى الغنم المتطلع إلى ما هو ليس بأهل له. لكن داود زاغ. كان حاضر البديهة خفيف الحركة سريع الزوغان. ضربه شاول ثانية لكن داود قفز خارجاً فى خفة الظباء .. وربما فى فزع الحملان.

عندما عاد شاول إلى وعيه وأفاق .. بدأ يخاف داود. خُيل إليه أن روح الرب قد فارقته وحلت فى جسد الغلام. لن يكون سهلاً التخلص منه أو قتله خصوصاً وأن جميع إسرائيل قد أصبحوا يحبونه كرمز للشجاعة والبطولة والإقدام.

لم يكن الشعب فقط هو الذى أحب داود وتغنى ببطولته .. إن يوناثان بن شاول هو أيضاً تعلقت نفسه بنفس داود. أحبه يوناثان كنفسه. أخبره داود بما حاول أبوه أن يفعل:

- لماذا يحاول الملك قتلى وأنا خادمه وعبد له؟ ما أسأت إليه أبداً ولا إلى الشعب. ما هى خطيتى التى توجب قتلى؟

قال يوناثان:

- لا تفزع يا داود. أنا إلى جانبك حتى ولو كانت يد أبى عليك.

وكما جاء فى الحكاية ، خلع يوناثان الجبة التى عليه وأعطاها لداود مع ثيابه وسيفه وقوسه ومنطقته. وتعاهد الأثنان على أن لا يسئ أى منهما إلى شخص الآخر أو إلى أهل بيته .. عهد بين يوناثان ابن الملك وداود الذى أحبه الشعب وغنى له.

لكن الملك كانت عينه على داود. أبدا ما اطمأنت نفسه إليه. هذا الصبى ، رويعى الغنم ، له أحلام كبيرة وتطلعات كثيرة ، وقد اغترت نفسه وامتلأت زهواً بغناء النساء الراقصات وتمجيدهن له.

فكر الملك ملياً. من الأفضل ألا تكون يده هو نفسه على داود. من الأفضل أن يقذف به إلى صفوف الفلسطينيين فتكون يدهم هم عليه .. ولا لوم على الملك إن هم قتلوه.

كانت ميكال ابنة شاول تحب داود .. كما أحبه أخوها .. وكما أحبه شعب إسرائيل. أحيط شاول علماً بهذا الحب من بعض عبيده فحسن الأمر فى عينيه:

- أعطيه إياها فتكون له شركاً وتكون يد الفلسطينيين عليه.

قال شاول لداود وقد تظاهر بحب وحنو لم يألفهما داود من قبل:

- اليوم تكافأ على قتلك جليات. اليوم أحقق لك ما وعدت.

نظر داود إلى شاول فى تساؤل وشك. بدأ هو أيضاً يحذر الملك بعد محاولة القتل. قال:

- لست فاهماً يا سيدى. فليتعطف علىَّ الملك بمزيد من الإيضاح.
- أنسيت الوعد؟

لم ينسى داود. لكنه استبعد الفكرة تماماً بعد أن حاول الملك الغدر به. سأل:

- أى وعد يا مولاى؟
- أن أزوجك ابنتى. أن تكون صهراً للملك.

لم يتخل داود عن حذره. كان يرغب لكنه كان فى نفس الوقت يخاف. أجاب وهو يتظاهر بالمذلة والمسكنة:

- تستخف بى يا مولاى. تزدرينى عندما تمنينى بالمستحيل الذى لا يمكن الوصول إليه أو الحصول عليه.
- أنت تستحق ذلك يا داود.
- تسحقنى بهذه الكلمات سحقاً يا مولاى .. وأنا رجل مسكين وحقير.
- أنت شجاع وما تملكه من المقدرة ليس بالشئ اليسير.
- شجاع يا سيدى. ربما. لكن وجودى كله ينسحق فى وجود الملك. أما عن المقدرة فأنا لا قدرة لى على مهر ابنة الملك.

قال شاول وهو يحاول الوصول إلى تحقيق ما فكر فيه من قبل:

- لن أطلب منك مالا. نحن لا نطلب ما لا حاجة لنا به وعندنا منه الكثير.
- إذن ما هى طلبة سيدى؟
- مائة رأس.
- من الغنم؟ .. هذا أمر يسير.
- أسأت الفهم.

- يبدو أن عبدك يتخلى عنه فهمه فى وجودك يا مولاى وأنت مسيح الله. مائة رأس .. ماذا؟
- مائة رأس من رؤوس الفلسطينيين.
- آه.

أدرك داود مدى خطورة الشرك الذى نصبه له الملك.

صاح شاول وقد بدأ يغضب:

- آه .. ماذا؟ هذه ألـ "آه" لا تصلح فى حضرة الملك.
- السمع والطاعة يا مولاى. ما يأمر به الملك يكون. ما أنا إلا عبد من عبيد الملك.
- إن فعلت ذلك .. عندها فقط تكون صهراً للملك.

أشار شاول بيده إلى داود كى ينصرف. فانصرف. داود يريد ابنة الملك. هذه خطوة لابد وأن يخطوها فى الطريق إلى حيث يريد. الفرصة يجب ألا تضيع. لابد وأن ينتهزها مهما كانت المخاطر. لكن هل يستطيع هو ورجاله مهاجمة جيش للفلسطينيين وقتل مائة منهم دفعة واحدة؟ صعب الإقدام على مثل هذه المخاطرة .. ضرب من ضروب المستحيل. إذن لتكن الحيلة وسيلة له لتحقيق ما يريد.

تشاور داود مع بعض من خرجوا معه. سأل:

- كيف السبيل إلى قتل مائة من الفلسطينيين دفعة واحدة؟

قال أحدهم:

- لن نقدر على ذلك فعددنا قليل.

أضاف آخر:

- أنت قدرت على قتل رجل واحد منهم فى غفلة منه وفى لحظة خاطفة. حدث قد لا يتكرر مرة ثانية.

وقال ثالث:

- ثم لا تنسوا أنهم يقاتلون على أرضهم .. يعرفون مداخلها ومخارجها .. ومهما عشنا نحن إلى جوارهم فلابد وأن نعترف أننا دخلاء عليهم.

صاح داود صارخاً فى وجه المتحدث:

- هذا وعد الرب ونحن مجرد أدوات لتنفيذ مشيئته من منا يستطيع معصية إله إسرائيل؟

أجابوا جميعاً فى صوت واحد:

- لا أحد !!

- جنود الرب أنتم. ورب الجنود لا يخذل جنده.

تساءل أحدهم:

- ماذا علينا أن نفعل كى نحقق لك ما تريد .. نساعدك على تحقيق حلمك؟

وأضاف آخر:

- ولو فعلنا وظفرت أنت بابنة الملك .. بماذا سنظفر نحن؟

لن يفعلوا شيئاً بلا مقابل. هذه سنة جرت فى بنى إسرائيل منذ الجد الأكبر يعقوب المسمى بإسرائيل والذى لم يفعل شيئاً فى حياته دون مقابل حتى فى تعامله مع الرب:

يقرر يعقوب الهرب إلى "حاران" حيث خاله لابان بعد أن اغتصب كل حقوق أخيه عيسو بالكذب والخديعة والمكر والدهاء .. عيسو فى ثورة غضبه ربما يقتله. فى طريقه يتذكر يعقوب أن الرب وعده نسلاً كتراب الأرض ، وأرضاً تكون له ولنسله تمتد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .. أرضاً لا يعرفها وليست بأرضه. هكذا وعد الرب. إذا تحقق الوعد فهو الكسبان .. وإذا لم يتحقق فلن يخسر شيئاً. هو لم يدفع شيئاً والوعد بلا مقابل. لكن هذا الوعد قد يستغرق وقتاً. إنه يريد منفعة آنية مباشرة.

"إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه وأعطانى خبزاً لآكل وثياباً لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبى يكون الرب لى إلها".

إن يعقوب يفرض شروطه على الرب مقابل عبادته له. إن أعطاه خبزاً ليأكل وثياباً ليلبس وأعاده سالماً إلى بيت أبيه.. عبده. أما إذا لم يتحقق شئ من ذلك .. أى لا خبز .. لا ثياب .. لا رجعة بسلام .. فلا حق لهذا الإله عليه. إنها صفقة وعلى الرب أن يقبلها أو يرفضها.

إن يعقوب يريد أن يحقق ربحا حتى فى تعامله مع الرب.

هذا ما تعلمته سلالة يعقوب من سلوك يعقوب وهو الجد الأكبر .. المثل والقدوة .. المعلم الأول.

أعاد رجال داود السؤال:

- بعد أن تظفر أنت بابنه الملك .. بماذا سنظفر نحن؟

أجاب داود بلا تردد:

- تكونون شركائى فى كل سلب. ولن أتخلى عنكم أبداً. فقط أعينونى هذه المرة. وسترون بعدها ما أنا فاعل لكم.

رد أحدهم وهو يكاد يضحك:

- ما أنت فاعل لنا .. أو بنا؟

تجهم وجه داود. تحدث إلى الجميع بصوت فيه حدة ظاهرة:

- هذا وقت صعب. إما أن تكونوا معى أو تكونوا علىَّ. وسأعاملكم فى مستقبل الأيام بالمثل.

بدأ الخوف يسرى فى أوصال البعض. ما نسوا أن هذا الذى يتحدث إليهم هو قاتل الجبار جليات .. وهو الذى ترنمت وغنَّت واحتفلت به كل إسرائيل. قال أحدهم وكأنه قد وجد مخرجاً سهلاً:

- لماذا نقاتل الفلسطينيين وهم جبابرة فى القتال. هناك ما هو أسهل.

التفت إليه داود. قال:

- ماذا تعنى؟

- نسطو على الرعاة وعمال الحقول الفقراء البسطاء. هؤلاء يسهل قتلهم دون أن يصاب منا أحد. ولتكن الهجمات سريعة وفى أماكن متفرقة. نحن مسلحون وهم بكل تأكيد بلا سلاح. نحصل على المائة رأس من رؤوس التعساء فى نصف نهار .. وقد نظفر ببعض الماشية والأغنام.

- هذا ليس بسلوك مقاتلين .. إنه سلوك قطاع طرق.

- إن كان عندك اسم آخر تطلقه علينا فاطلقه .. وإن كان عندك فكر آخر فاعرضه .. وإلا فدعنا نعود من حيث أتينا.

تراقصت أمام عينى داود صورة ميكال ابنة الملك .. وما بعد ميكال .. كان كرسى العرش لكن دون شاول. قال:

- أصبت فيما قلت. فى الفجر نتفرق .. نبدأ السطو والقتل. سرعة التنفيذ لابد وأن تكون كسرعة البرق كى لا ينكشف الأمر. نلتقى بعد منتصف النهار فى نفس المكان.

نجح داود ورجاله فى سطوهم. قتلوا مئتين من بؤساء فقراء الفلسطينيين .. ولاذوا بالفرار قبل أن يتمكن أحد من اللحاق بهم.

وبعملية السطو هذه صاهر داود الملك. أعطاه شاول ميكال ابنته امرأة.

***

لم تطمئن نفس شاول. كان على يقين أن داود لن يقنع بما حصل عليه. طموحات داود كبيرة وأطماعه بلا حدود .. ولن يقر له قرار حتى يجلس على كرسى العرش.

كان شاول يحس ويرى مالا يحسه وما لا يراه الآخرون. وتفادياً لانتزاع المُلْك من بيته وانتقاله إلى بيت رويعى الغنم .. كان لابد وأن يموت داود.

كلم شاول يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود. كان من المستحيل أن يقدم يوناثان على قتل داود بعد أن تعاهدا على ألا يسئ أى منهما للآخر .. ألا تكون يد أى منهما على صاحبه أو على بيته مدى الحياة.

تحدث يوناثان إلى داود. فشى إليه بسر أبيه:

- أبى ملتمس قتلك. والآن فاحتفظ على نفسك إلى الصباح وأقم فى خفية واختبئ. سأتحدث إلى أبى فى شأنك وأرى ماذا يصير وأخبرك.

انحنى داود على يد يوناثان محاولاً تقبيلها. عانقه يوناثان فى كرم نفس بالغ .. ثم قال:

- لن تصاب بسوء وأنا على قيد الحياة.
- سأظل عبداً لفضلك ما حييت.

بكى داود وهو يضيف:

- أنا عبدك وعبد الملك. ماذا اقترفت كى يسعى الملك إلى هلاكى؟
- لتهدأ نفسك ويطمئن قلبك حتى تمر هذه الأيام العصيبة فى سلام.

تحدث يوناثان عن داود مع شاول أبيه:

- عبدك داود أعماله حسنة جداً. لم يخطئ يوماً إليك. فلماذا يخطئ سيدى الملك إلى عبده داود؟ إنه هو الذى قتل الفلسطينى جليات فصنع الرب خلاصاً عظيماً لجميع إسرائيل. أنت شهدت وفرحت. فلماذا تخطئ إلى دم برئ بقتل داود بلا سبب؟

قال الملك:

- تدافع عن ذلك المجهول القادم من وراء الغنم وأنت لا تعرف مقدار خطورته.
- أى خطورة فى داود وقد خاطر بحياته وقتل العملاق الفلسطينى دفاعاً عن إسرائيل؟ لقد كان لنصره دوى أثار الرعب فى قلوب أعداء الرب.
- لم يخاطر بحياته من أجلى ولا من أجلك ولا من أجل الشعب ولا من أجل الرب.
- من أجل ماذا إذن؟
- من أجل الوعد الذى يخلب لُبَّ أى رجل.
- أى وعد؟
- أن يصاهر الملك .. أن يتزوج ابنة مسيح الرب الجالس على العرش.
- أنت الذى وعد. ألم يكن وعدك صدقاً؟
- كان .. فالملك لا يكذب أبدا. لكنى كنت أتصور أن يقدم على ذلك أحد الأبطال المعدودين فى إسرائيل ، لا أحد الحقراء المساكين. هذا وصفه لنفسه. ألم يقل أمام الجميع: "أنا رجل مسكين وحقير"؟
- قال ذلك تواضعاً أمام مسيح الرب. فالهامات مهما كانت سامقة لا تتطاول فى حضرة الملك.
- مادمت تؤمن بذلك سأسمع لصوتك الآن. لن يقتل داود حتى تثبت لك الأحداث عكس ما تقول.

أخبر يوناثان داود بكل هذا الكلام. ثم جاء به إلى شاول فسجد أمامه فى خضوع غير المطمئنة نفسه .. لكنه سجد. وكان أمامه كأمس وما قبله.

لكن نفس شاول كان داخلها يضطرم. فى وجود داود ما كانت أبدا بنفس مطمئنة.

ومن شدة قلقه هاج واضطرب. سيطر عليه الروح الردئ من قبل الرب وهو جالس فى بيته ورمحه بيده. كان داود يضرب بالعود فى محاولة لتهدئة سيده. لكن شاول فى ثورة الانفعال حاول – كما حاول من قبل – أن يطعن داود بالرمح .. ففر داود من أمامه لأنه كان دائم الحذر. نجح فى الهرب ونجا تلك الليلة.

عندما علم شاول بفرار داود أرسل رسلاً إلى بيته ليراقبوه ويقتلوه فى الصباح. **قال لهم الملك:**

– لا نجوتم إن نجا. إن لم تقتلوه آمر بقتلكم جميعاً ولن ينجو منكم أحد.

أسرع أحد العبيد إلى ميكال زوجة داود. أحاطها علما بقرار الملك. أخبرت زوجها فى الحال. **قالت محذرة:**

– إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تقتل غداً.

– إن كانوا يراقبون البيت فكيف أخرج؟ هل أقاتل وأقتل رجال الملك فتثور على ثائرة إسرائيل؟

– هذه الكوة.

– ماذا عنها.

– قم أخرج منها. لن يكون فى طريقك أحد.

- ما عرفت أنك تحبيننى كل هذا الحب!!
- كيف لا أحبك وأنا امرأتك؟ لكن ليس هذا وقتا للحب. قد يكون للحب يوما آخر لو التقينا. إذهب بسلام.

أنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هارباً ونجا.

***

إلى أين يفر داود والملك يرسل عبيده حيثما ذهب؟ هل يذهب إلى صموئيل فى "الرامة" ويطلب حمايته؟ صموئيل رجل الله ليس بمقاتل وليس حوله رجال. وقد يكون داود سبباً فى مقتل صموئيل نفسه.وعندها تحل عليه لعنة الرب والناس جميعاً .. وتطارده .. فيصبح طريد الملك وطريد اللعنة.

يوناثان ابن الملك يحبه فى صدق فطرى لا زيف فيه ولا خداع. لماذا لا يلجأ إلى الابن ويطلب مساعدته؟ يضع الأب والابن فى مواجهة قد تكون فى صالحه. لن يشك يوناثان فى نواياه فطبيعته النبيلة لا تميل إلى الظن الآثم. الاقتراب من يوناثان مضمونه عواقبه.

فى الخفاء ودون أن يراه أحد توجه داود إلى بيت يوناثان. أظهر له الخضوع والخنوع وتذلل إليه ودموعه تنهمر. قال:

- يا سيدى أتوسل إليك. أخبرنى ماذا عملت وما هو إثمى وما هى خطيتى أمام أبيك حتى يطلب نفسى. يا سيدى متأكد أنا أنك تحس فى أعماق روحك أننى خادمك وخادم الملك.

قال يوناثان دون أن يساوره أدنى شك فى كلمات داود:

- حاشا. لا تموت. أبى لا يعمل أمراً كبيراً ولا أمراً صغيراً إلا ويخبرنى به. صحيح أنه كان قد انتوى قتلك من قبل. لكنه عفا

عنك وقربك ثانية إليه. إن كانت فكرة قتلك قد راودته من جديد ؛ كان لابد وأن يخبرنى. لماذا يخفى أبى هذا الأمر؟

عبَّر داود عن خبيئة نفسه .. أن يوقع بين الابن وأبيه .. لكن فى خفاء ودهاء. **قال فى مذلة وانكسار:**

- إن أباك قد علم أنى وجدت نعمة فى عينيك فقال لا يعلم يوناثان هذا لئلا يغتم. لكن حىّ هو الرب وحيَّة هى نفسك إنه كخطوة بينى وبين الموت.

طمأن يوناثان داود قائلاً:

- لا تحزن نفسك. أقابل الملك وأتحدث معه فى هذا الأمر.
- أرجوك يا سيدى أرسلنى فأختبئ فى الحقل حتى تتأكد من سلامتى وسلامة بيتى وأهلى. أما إن علمت أن الملك قد أعد لى الشر فاعمل معروفاً مع عبدك وساعدنى فى أن أنجو. لأنك بعهد الرب أدخلت عبدك معك.

صمت داود لحظات. بعدها أضاف كلمات انتقاها بدقة متناهية كى تصيب مباشرة هدفها.

- إن كان فِىَّ إثم يا سيدى فاقتلنى أنت.
- لا تنزعج. لن أقتلك أنا ولن يقتلك أبى. وإن استحسن أبى الشر نحوك فإنى أخبرك وأطلقك فتذهب بسلام. وإن وجدت نعمة فى عَيْنى الرب وكنت يوماً أنت مختاره .. تذكر محبتى لك ولا تقطع معروفك عنى إلى الأبد.

اختبأ داود فى الحقل. تحدث يوناثان إلى أبيه كما وعد داود. دافع عن داود فى حرارة أثارت غضب أبيه. **صاح الملك وقد سيطرت عليه ثورة عارمة:**

- يا ابن المتعوجة المتمردة .. أما علمت أنك قد اخترت ابن يسّى لخزيك وخزى عورة أمك. لأنه مادام ابن يسّى حيا على الأرض لا تثبت أنت ولا مملكتك. أنت تعرف مكانه. الآن أرسل وأت به إلىّ لأنه ابن الموت هو.

رد يوناثان على ثورة أبيه بسؤال:

- لماذا يُقتل .. ماذا عمل؟

فقد الملك سيطرته على نفسه. أمسك بالرمح ليطعن يوناثان. أسرع يوناثان بالفرار من وجه أبيه.

الأب ضد الابن .. هكذا نجح داود .. هذا ما سعى إليه فى محاولته لإنقاذ نفسه.

***

توجه يوناثان إلى الحقل حيث اختبأ داود. أخبر داود أنه لم يستطع أن يثنى أباه عن عزمه .. إن وُجد داود فى أرض يحكمها شاول يُقتل لحظة يوجد .. دمه أصبح مباحاً .. عليه أن يفر إلى أرض أخرى.

سقط داود على وجهه إلى الأرض وسجد ثلاث مرات. هذه لحظة فراق فارقة .. بعدها قد لا يلتقيان. قبل كل منهما صاحبه وبكى كل منهما مع صاحبه. **بعدها قال يوناثان:**

- اذهب بسلام لأن كلينا قد حلفنا باسم الرب قائلين يكون الرب بينك وبين نسلى ونسلك إلى الأبد.

- إن أنجانى الله أكون لك عبداً.
- وإن صرت ملكاً.
- إن كانت هذه هى مشيئة إله إسرائيل .. وصرتُ أنا مسيح الرب .. الملك الممسوح بالدهن المبارك من الكهنة والمدعوم من الشعب .. تكون أنت يمينى وتعيش جوارى إلى الأبد لا يفرقنا سوى الموت.

قام داود وذهب. أما يوناثان فجاء إلى المدينة.

***

رحل داود سريعاً إلى بلدة لا تبعد كثيراً عن مكان مخبئة. كان مطارداً. وكان فى نفس الوقت جائعاً. لابد من الحصول على طعام وشراب فقد أعياه الجوع وأنهكه العطش. استخدام الحيلة والكذب فى هذه الحالة حلال ومباح لأنه لا توجد بين الوصايا العشر التى كتبت "بأصبع الله" – كما يدعى كتبة التوراة – وصية تقول: لا تكذب.

توجه داود إلى أخيمالك بن أخيطوب كاهن البلدة. اضطرب الكاهن عند لقاء داود. **سأل:**

- لماذا أنت هنا .. وليس معك أحد؟

أجاب داود فى ثبات وهو يكذب وكأنه ما يزال أحد رجال الملك:

- إن الملك أمرنى بشئ. وقال لى لا يعلم أحد شيئاً من الأمر الذى أرسلتك فيه وأمرتك به. وأما الغلمان فقد عيَّنتُ لهم مكاناً للانتظار.
- أنت إذن فى خدمة الملك؟
- من منا لا يخدم مسيح الرب؟ كلنا عبيد للملك.

- ماذا أستطيع أن أقدم لك؟

- ماذا يوجد تحت يدك؟ اعطنى خمس خُبزات فى يدى أو الموجود.

- لا يوجد خبز مُحلل تحت يدى. لكن يوجد خبز مقدس. هذا لا يحل لكم.

ردَّ داود فى صلابة وحسم:

- فى حالة الجوع كل شئ يحل لنا حتى خبز الآلهة !! أعطنى خمس خبزات.

لمح الكاهن الشر فى عينى داود. تدارك الأمر.

قال:

- هل حفظ الغلمان أنفسهم لاسيما من النساء؟ هل هم أطهار.

استمر داود فى كذبه. ردَّ على الكاهن بقوله:

- إن النساء قد منعت عنا منذ أمس وما قبله عند خروجى .. وأمتعة الغلمان مقدسة. وفى حالة الجوع – يحلُّ لنا كل طعام .. حتى طعام الآلهة!!

أعطاه الكاهن الخبز المقدس لأنه لم يكن هناك خبز إلا خبز الوجوه المرفوع من أمام الرب لكى يوضع خبز سخن فى يوم أخذه.

كان داود فى حاجة إلى سلاح لأنه خرج مجرداً من كل شئ.

سأل الكاهن:

- أما يوجد هنا تحت يدك رمح أو سيف لأنى لم آخذ بيدى سيفى ولا سلاحى لأن أمر الملك كان متعجلاً.

كان داود يكذب. وكان الكاهن يعرف أنه يكذب. لكنه كان يريد أن ينهى حرج الموقف بأية صورة. **أجاب:**

- إن سيف جليات الفلسطينى الذى قتلته ها هو ملفوف فى ثوب إن شئت أن تأخذه فخذه لأنه ليس آخر سواه هنا.
- لا يوجد مثله. اعطنى إياه.

انصرف داود بالخبز والسيف. لمحة صدفة وهو يتحدث إلى الكاهن عبد من عبيد شاول كان يتولى رئاسة الرعاة. ذهب من فوره إلى الملك **وأخبره:**

- رأيت ابن يسّى آتياً إلى أخيمالك. فسأل له من الرب وأعطاه زاداً وسيف جليات الفلسطينى أعطاه إياه.

غضب الملك غضباً أفزع كل من حوله. طلب من رئيس جيشه "أبنير" بن "نير" أن يستدعى أخيمالك الكاهن وجميع أهل بيت أبيه الكهنة. فجاءوا كلهم إلى الملك صرخ شاول فى وجه أخيمالك:

- يا ابن أخيطوب!!
- هأنذا يا سيدى.
- لماذا فتنتم علىَّ أنت وابن يسىَّ بإعطائك إياه خبزاً وسيفاً؟!!
- أعلم أن داود صهر الملك وصاحب سره ومكرَّم فى بيته. ولقد أخبرنى أنه فى مهمة بالغة الخطورة .. خارج هو – كما قال – فى خدمة الملك.
- كذب. هذا كله كذب.
- أنا لا أكذب يا سيدى.

- ألا تعلم أن دمه مباح لأنه أغضب الملك.
- هذا معناه أنه قد خدعنى يا سيدى. أخبرنى أنه من أخلص عبيد الملك. وكيف لا يكون كذلك وهو زوج ابنته؟
- هذا إدعاء مرفوض وكذب.
- معذرة يا سيدى. لا ينسب الملك شيئاً لعبده ولا لجميع بيت أبى لأن عبدك لم يعلم شيئاً فى كل هذا صغيراً أو كبيراً.
- خيانتك لا نغتفر.
- ما كنت يوماً لأخون مسيح الرب. ولاؤنا لملك إسرائيل فوق كل ولاء.
- هراء. لقد حكمت على نفسك بالموت.
- رحماك يا مولاى. فكر قبل أن تمد يدك إلى رجل الله.
- موتنا تموت يا أخيمالك أنت وكل بيت أبيك. هذا قضاؤنا ولا مهرب لكم منه.

أصدر الملك أمره للسعاة الواقفين لديه:

- دوروا واقتلوا كهنة الرب لأن يدهم أيضاً مع داود ولأنهم علموا أنه هارب ولم يخبرونى.

لم يجد عبيد شاول فى أنفسهم الجرأة على أن يمدوا أيديهم ليقعوا بكهنة الرب. سجدوا أمام الملك فى ذل وضعف. قال قائدهم:

- يا مسيح الرب. لا نملك مقدرة الفعل!!

التفت إليهم شاول فى إزدراء:

- لو لم تكونوا من أخلص رجالى لأمرت بقطع رقابكم قبل قطع رقاب الكهنة. اغربوا عن وجهى الآن ضماناً لسلامتكم.

نادى الملك على أحد قادة جيشه المعروفين بالغلظة والتعطش الدائم لسفك الدماء.

- أنت !!
- أمر مولاى الملك.
- دُرْ أنت وقعْ بالكهنة.

فى الحال دار الرجل وسيفه بيده. قتل فى ذلك اليوم خمساً وثمانين رجلاً ، كما أمر الملك. أشار الملك إلى قائد آخر:

- اتجه أنت إلى مدينة هؤلاء الكهنة. أضربها بحد السيف .. الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير.

وتم تنفيذ الأمر. لم ينج إلا ولد واحد لأخيمالك اسمه أبياثار. نجح فى الهرب إلى داود. أخبره أن شاول قد قتل كهنة الرب جميعاً. قال داود:

- علمت فى ذلك اليوم الذى كان فيه رئيس رعاة الملك هناك أنه يخبر شاول. أنا سبب هلاك جميع أنفس بيت أبيك. أقم معى.
- قد يسعون فى أثرى يطلبون نفسى.
- لا تخف لأن الذى يطلب نفسك يطلب نفسى. ولكنك عندى محفوظ.

***

كان داود قد هرب إلى إحدى الممالك التى لا يسيطر عليها شاول ولا يصل إليها نفوذه. سعى إلى ملكها يطلب عونه وحمايته. لكن عبيد الملك اعترضوا على وجوده بينهم. قالوا:

- أليس هذا داود ملك الأرض؟ أليس لهذا كانت نساء إسرائيل يغنين في الرقص قائلات: ضرب شاول ألوفه وداود ربواته؟

أثار قولهم الذعر في قلب داود. قد تكون نهايته على أيديهم لا على يدى شاول. استخدم ذكاءه وسرعة بديهته وقدرته الفذة على خداع الآخرين. تظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخربش على مصاريع الباب ويسيل ريقه على لحيته ويصرخ صرخات غريبة ويهمهم بكلمات غير مفهومة وكأنه مجنون حتى الموت.

قال الملك لعبيده وهو يشير إليهم كى يبعدوا داود خارجاً:

- هو ذا ترون الرجل مجنوناً فلماذا تأتون به إلىَّ. ألعلى محتاج إلى مجانين حتى أتيتم بهذا ليتجنن علىَّ؟ اقذفوا به خارجاً!!

هكذا نجا داود بمكره. سارع بالاتجاه إلى بيوت إخوته وأبيه. التقى بهم. اجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مُرّ النفس .. فكان عليهم رئيساً. وكان معه نحو أربع مئة رجل وأبياثار الكاهن بن أخيمالك المقتول .. اتجه بهم جميعاً إلى أرض يهودا. وفي الطريق انضمت إليه كثرة .. ازداد عدد الرجال.

سمع شاول عما جمعه داود من رجال قويت بهم شوكته رأى أنه من الأفضل أن يسرع بالقضاء عليه قبل أن يشتد خطره ويصبح من الصعب استئصاله ومن معه.

علم داود أن شاول قد خرج يطلب نفسه. توجه إلى الغاب واحتمى هو ورجاله بها. في الغاب سيكون هو الأقوى. سيكون من السهل عليه اقتناص عدوه لو جرؤ وطاردهم بين الأدغال.

أرسل داود أحد رجاله إلى يوناثان بن شاول يطلب لقاءه. طلب من رجله أن يكون غاية فى الحذر حتى لا ينكشف أمره وتكون نهايته الموت على أيدى رجال الملك.

كان الرجل على قدر المسئولية. التقى بيوناثان وصحبه إلى حيث داود. عانق يوناثان داود فى حرارة وشدّد يده بالله. طمأنه. لن تطوله يد شاول مهما كثرت المحاولات .. نجم داود هو الأعلى وسيفه هو الأقوى والنصر له فى النهاية. **قال يوناثان:**

- لا تخف لأن يد شاول أبى لا تجدك .. وأنت تملك على إسرائيل فى مستقبل الأيام وأنا أكون لك ثانياً. وشاول أبى أيضاً يعلم ذلك.

تأكد داود أنه قد أحكم سيطرته تماماً على يوناثان وأنه قد قضى تماماً على ولاء الابن لأبيه. أصبح ولاء يوناثان لداود لا لأبيه شاول مسيح الرب وملك إسرائيل. تعانقا ثانية وقطع كلاهما عهدا أمام الرب. وأقام داود فى الغاب. أما يوناثان فمضى إلى بيته.

توجه بعض أهل الغاب إلى شاول بعد أن ضاقوا بوجود داود ورجاله بينهم. كانوا يدينون بالولاء للملك وينظرون بحذر إلى مكر داود. قالوا للملك:

- داود مختبئ عندنا فى حصون الغاب إلى يمين القفر. فالآن حسب كل شهوة نفسك أيها الملك فى النزول أنزل وعلينا أن نسلمه ليد الملك.

امتدحهم الملك وأثنى عليهم وباركهم:

- مباركون أنتم من الرب. اذهبوا أكدوا أيضاً واعلموا وانظروا مكانه حيث تكون رجله ومن رآه هناك لأنه قيل لى أنه يمكر مكراً. فانظروا واعلموا جميع المختبآت التى يختبئ فيها ثم ارجعوا إلىَّ على تأكيد فأسير معكم ويكون إذا وجد فى الأرض أن أفتش عليه بجميع ألوف يهوذا.

أسرع رجال داود الذى كانوا يتجسسون له وأخبروه. أمر رجاله بترك الغاب والنزول إلى الصخر. عليهم أن يقيموا فى البرية حتى لا يحاصرهم شاول ويوقع بهم أهل الغاب الذين فشل داود فى استمالتهم وكسب ولائهم وضمهم إليه.

وكان كلما نجح شاول فى محاصرة داود.. نجح داود هو أيضاً فى الفرار من شاول. حتى كان لقاء صدفة فى أحد الكهوف.

خرج شاول ومعه ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع إسرائيل. وذهب يطلب داود ورجاله على صخور الوعول. فى الطريق كان هناك كهف دخله شاول كى يستريح وهو لا يعلم أن داود وبعض رجله كانوا جلوساً فى مغابن الكهف.

قال داود وقد فوجئ بوجود شاول:

- هو ذا اليوم الذى قال لك عنه الرب هأنذا أدفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن فى عينيك.

قال أحد رجال داود:

- فرصتك الآن يا سيدى. تقدم. أقتله.

لم يجد داود فى نفسه الجرأة على قتل مسيح الرب قال:

- حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى. لا أقدر أن أمد يدى إليه لأنه مسيح الرب هو.

وبَّخ رجاله بالكلام ومنعهم من القيام على شاول. اكتفى بأن قام هو بقطع طرف جبة شاول سراً.

لم يشعر شاول بما حدث لأنه كان قد ذهب فى إغفاءة قصيرة. بعدها قام وذهب فى طريقه. عندها خرج داود هو أيضاً من الكهف.

نادى من وراء شاول:

- يا سيدى الملك !!

عندما التفت شاول إلى ذلك الذى يناديه ، خرَّ داود على وجهه إلى الأرض. سجد.

صاح شاول فى استغراب:

- داود أنت؟!!
- نعم يا سيدى .. إنه هو أنا. أتوسل إليك أن تستمع إلىَّ. لماذا تسمع كلام الناس القائلين هو ذا داود يطلب أذيتك؟
- ألم تسع إلى ذلك دوماً وعيناك تتطلعان إلى ما ليس لك؟
- ما سعيت يا مولاى ولا أقدر .. وإن قدرت لا أفعل.
- أنت لا تصدق القول وفى قلبى منك توجس.
- أثبت لك الآن صدق قولى بدليل لا يمكن إنكاره.
- كيف؟

- دفعك الرب اليوم ليدى فى الكهف وقيل لى أن أقتلك .. لكنى أشفقت عليك وقلت لا أمد يدى إلى سيدى لأنه مسيح الرب هو.
- ما كان بالكهف أحد.
- لا. بل كنا هناك فى جوف ظلمته. انظر يا سيدى. هذا طرف جبتك بيدى!
- كيف حصلت عليه؟
- وأنت فى إغفاءتك. ومن قطعى طرف جبتك وعدم قتلى إياك اعلم وانظر أنه ليس فى يدى شر ولا جُرم ولم أخطئ إليك وأنت تصيد نفسى لتأخذها.
- أنت متمرد وعاق وحولك رجال. وجودك فى المملكة يمزقها.

عندها عبَّر داود عن خبيئة نفسه دون التواء. إنه يريد الانتقام من شاول .. لكن ليقم بذلك الرب نيابة عنه. **قال:**

- يقضى الرب بينى وبينك وينتقم لى الرب منك. لكن يدى لا تكون عليك.

استجمع داود كل جرأته ثم أضاف:

- من الأشرار يخرج شر. شرك ينقلب عليك. لكن يدى لن تمتد إليك.

بعدها عاد إلى التظاهر بالذلة والمسكنة. كان يتلون كالحرباء.

قال:

- وراء من خرج ملك إسرائيل؟ وراء من أنت مطارد؟ وراء كلب ميت؟ وراء برغوث واحد؟ الرب الديان يقضى بينى وبينك ويرى ويحاكم محاكمتى وينقذنى من يدك.

رأى شاول أنه قد فشل فى كل محاولاته لقتل داود .. وأن يد داود هى الأعلى بدليل أنه قد تمكن منه ورغم ذلك لم يقتله .. تركه – كما ادعى – لقضاء الرب. أحس فى أعماقه أن روح الرب قد فارقته وأنها قد حلت بداود. **قال مهادنا:**

- إنى علمت أنك تكون ملكاً وتثبُتُ بيدك مملكة إسرائيل. احلف لى الآن بالرب أنك لا تقطع نسلى من بعدى ولا تُبيد اسمى من بيت أبى.

ما كان لداود إلا أن أقسم. إن رؤاه على وشك التجسد وحلمه على وشك أن يتحقق. حلف لشاول ثم انصرف هو ورجاله وتركوا شاول كى يعود إلى بيته فى سلام.

***

مات صموئيل. بكته جميع إسرائيل. ندبوه ودفنوه فى بيته فى "الرامة". وقام داود ونزل إلى البرية (برية فاران). كان هو ورجاله جوعى. لابد من الحصول على طعام.

سمع داود عن رجل شديد الثراء واسع الأملاك فى "الكرمل". كان عظيماً جداً وله ثلاثة آلاف من الغنم وألف من المعز. كان اسم الرجل "نابال" واسم امرأته "أبيجايل". المرأة كانت جيدة الفهم وجميلة جداً. أما الرجل فقد كان قاسياً بخيلاً لا يكرم الغرباء ، ولا يثق حتى فى الأقرباء.

أُخبر داود أن الرجل يجز غنمه ويذبح للعاملين فى جز الغنم .. وهى فرصة طيبة للحصول على ما يسد الرمق من طعام. أرسل داود عشرة غِلْمان إلى نابال. **قال لهم:**

- ادخلوا إلى نابال واسألوا باسمى عن سلامته. وقولوا هكذا: حُييت وأنت سالم وبيتك سالم وكل مالك سالم .. حين كان رعاتك معنا لم نؤذهم ولم يُفقد لهم شئ. ليجد الغلمان نعمة فى عينيك لأننا جئنا فى يوم طيب. فأعط ما وجدته يدك لعبيدك ولابنك داود.

تحدث الغلمان إلى نابال. لكن نابال نظر إليهم فى ازدراء.

قال فى سخرية لاذعة:

- من هو داود هذا .. ومن هو ابن يسَّى؟!! قد كثر اليوم العبيد.

رد أحد الغلمان قائلاً:

- داود يا سيدى ليس عبداً. إنه سيد فى قومه مطاع.
- سيد عندك وعند أمثالك يا شقى. هل يتصور ذلك الـ "داود" أننى آخذ خبزى ومائى وذبيحى الذى ذبحت لجازىّ وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟ اغربوا عن وجهى وإلا أمرت بذبحكم مع الشياه.

رجع غلمان داود خائبين .. قصوا عليه ما حدث. لم ينتظر داود حتى يكملوا الكلام. صاح فى رجاله.

- ليتقلد كل واحد منكم سيفه.

فتقلد كل واحد سيفه. وتقلد داود أيضاً سيفه وصعد وراء داود نحو أربع مئة رجل ومكث مئتان مع الأمتعة. لقد قرر داود أن يبيد نابال ورجال نابال ويستولى على كل ماله بحد السيف.

أسرع أحد الغلمان إلى أبيجايل. أخبرها بما حدث من سيده وكيف ثار على رسل داود وسبَّهم وسبَّ من أرسلهم. **ثم أضاف:**

- والرجال محسنون إلينا جداً فلم نؤذ ولا فُقد منا شئ كل أيام ترددنا معهم ونحن فى الحقل. لقد عاملهم سيدى بشر وهم بدورهم لابد وأن يُعدُّوا الشر عليه وعلى أهل بيته. لن يتركنا داود ورجاله كى نعيش فى سلام. فانظرى ماذا تعملين.

كانت أبيجايل تعلم أن زوجها بخيل لئيم لا يمكن الكلام معه. حملت على كتفيها مسئولية التعامل مع داود كى توقف ما قد يحدث لها ولأهل بيتها من خراب ودمار. وكانت المرأة على قدر كبير من الذكاء وقدر أكبر من الجمال.

أمرت فى الحال ودون علم زوجها بإعداد مئتى رغيف خبز وزقى خمر وخمسة خرفان مهيأة وخمس كيلات من الفريك ومئتى عنقود من الزبيب ومئتى قرص من التين ووضعتها على الحمير.

ساق الغلمان الحمير وتبعتهم أبيجايل وقد أرخت على وجهها حجاب. فى الطريق حدث ما توقعت. قابلهم داود ورجاله وبأيديهم السيوف.

أسرعت أبيجايل باتجاه داود بعد أن أشار إليه أحد غلمانها. وقفت أمامه. كشفت عن وجهها وهى تعلم تماماً تأثير الجمال على

فحول الرجال. بعد أن أعطته فرصة كافية كى يتأمل وجهها ويؤخذ بحسنها .. سجدت إلى الأرض. حاولت أن تقبل قدميه لكن داود انحنى بسرعة وأمسك بذراعيها. رفعها إليه. حملق فى عينيها .. ونسى .. نسىَ ما كان قد خرج إليه .. نسى الجوع ونابال والشياه والغلمان .. تاه. لكن كلماتها فى الحال أرجعته. قالت:

- سيدى. دع أمتك تتكلم فى أذنيك .. أتوسل أن تستمع إلىَّ.

رنت كلماتها فى أذنيه كموسيقى الأكوان. كان على استعداد لأن يستمع إليها العمر كله. همس:

- تكلمى.

أدركت المرأة بغريزتها أنها قد ملكت الزمام. قالت:

- علىَّ أنا يا سيدى هذا الذنب. لا يضعنَّ سيدى قلبه على الرجل اللئيم هذا .. على نابال. إنه أحمق واسمه مشتق من الحماقة.. فلا تؤاخذه على حماقته ولؤمه. أما أنا يا سيدى أمتك لم أر الغلمان الذين أرسلتهم. ولقد أحضرت جاريتك ما تستطيع. فلتعط للغلمان كى يأكلوا ويشبعوا ويسعدوا. وأحضر لكم – لو أردت – المزيد.

قال داود وقد أخذ بذكائها كما أخذ من قبل بجمالها:

- أنت أنبل من زوجك بكثير.
- لا صلة له بالنبل يا سيدى. إنه بخيل ولئيم.
- لا تنزعجى. سننظر فى أمره ولن نطيل.

- المهم يا سيدى هو أن تصفح عن ذنب أمتك. وإذا أحسن الرب إليك .. أذكرنى.

- أذكرك؟! وكيف أنساك وقد أقدمت على ما لم يجرؤ عليه الرجال.

- وضعت فى قلبى فرحة .. سيدى يكاد قلبى من الفرح يطير.

- مبارك الرب إله إسرائيل الذى أرسلك هذا اليوم لاستقبالى. ومبارك عقلك. ومباركة أنت .. قد سمعت لصوتك ورضيت.

أخذ داود من يدها ما أتت به ثم أخذ بيدها. قال:

- هيا اصعدى بسلام.

نظرت إليه وعيناها تدعوان. وبادلها النظر وعيناه أيضاً تدعوان. قالت:

- إلى أين يا سيدى وأنت ممسك بيدى؟

قال بصوت مبحوح:

- إلى خيمتى.

- تشريف لى يا سيدى. أحصل على بركتك. وأدعو أن يقيمك الرب رئيساً على إسرائيل.

دخل بها الخيمة. أرخى الستر. مد يديه. خلع ما عليها من ثياب. تحسَّس كتفيها العاريتين. **همس:**

- يغضبك ما أفعل؟

- يغضبنى؟! سيدى .. طالما سمعت عن بطولتك الفذة وفحولتك التى تخلب لب أى امرأة .. طالما تمنيت أن أكون من تحتك مُهرة رائعة الحركة تامة الاكتمال .. أسعدك وأسعد بك ..

أشبعك وأشبع منك .. لا أفارقك أبداً حتى الممات. فليتقبلنى سيدى جارية له.

احتواها داود بين ذراعيه. كان أثناء حديثها قد خرج من كامل ثيابه .. وواجه العراء العراء!!

غاص فى عنقها بشفتيه. تأوهت. رفع وجهه يتأمل جمالاً ما رآه من قبل. غنى بصوته الرخيم:

- ها أنت جميلة يا حبيبتى .. ها أنت جميلة. عيناك حمامتان .. شفتاك كسلكة من القرمز .. فمك حلو .. خدك كفلفلة زمانة .. عنقك كبرج يبنيه داود .. ثدياك كخشفتى ظبية توأمين يرعيان بين السوسن. كلك جميلة يا حبيبتى .. كلك جميلة.

يميل عليها. يقبلها يواصل الغناء:

- شفتاك يا عروس تقطران شهدا .. تحت لسانك عسل ولبن .. ورائحتك عطرة كرائحة لبنان.

وترد أبيجايل وهى تترنم بصوت أكثر جمالاً من جمال وجهها:

- ها أنت جميل يا حبيبى ها أنت جميل .. وفراشنا معطر.. كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبى بين البنين. تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقى. أدخلنى إلى بيته فما تمالكت نفسى. أسندونى بأقراص الزبيب .. أنعشونى بالتفاح .. فإنى مريضة حباً. شماله تحت رأسى ويمينه تعانقنى.

يتمددان وقد تعانقت أجسادهما. يواصل داود:

- يا حبيبتى . يا جميلتى. يا حمامتى. أسمعينى صوتك أكثر وأكثر لأن صوتك لطيف ووجهك جميل.

ترد أبيجايل:

- قبل أن ألقاك يا حبيبى .. فى الليل .. على فراشى .. طلبت من تحبه نفسى .. طلبته فما وجدته .. قمت وطفت فى المدينة .. فى الأسواق وفى الشوارع .. أطلب من تحبه نفسى .. طلبته فما وجدته. وجدنى الحرس الطائف فى المدينة فقلت أرأيتم من تحبه نفسى؟ ما أجابنى منهم أحد. فجأة ظهر حبيبى وكأنه قد سمع هتاف قلبى. سجدت أمامه. أقامنى. أخذنى إلى خيمته. هاأنذا فى جلال نوره . فى غامر حبه .. فى جنته أنا .. آكل شهدى مع عسلى .. أشرب خمرى مع لبنى.

داود: كل هذا الجمال يا أبيجايل!! كيف أبدع وصنع؟! دوائر فخذيك مثل الحلى صنعه يدى صناع .. سُرَّتُك كأس مدورة .. بطنك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن .. ثدياك كخشفتين توأمى ظبية .. عنقك كبرج من عاج .. عيناك كالأقمار .. أنفك كبرج لبنان .. رأسك عليك مثل الكرمل وشعر رأسك كأرجوان.

أبيجايل: يا مليكى!!

داود: أنا ملك قد أُسر بالخُصل. ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات. قامتك هذه شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد. قلت أنى أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ورائحة أنفك كالتفاح وحنكك كأجود الخمر.

أبيجايل: هيا اصعد يا حبيبى. أنا فى اشتياق. شفتاك سوسن تقطران شهداً .. يداك حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد .. بطنك عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق .. ساقاك عموداً رخام .. طلعتك كلبنان. سامق أنت كالأرز .. حلقك حلاوة وكله مشتهيات. حبيبى أنت .. خليلى. اصعد يا حبيبى اصعد .. ما عدت أطيق الانتظار. أشبعنى حباً. اجعلنى أتأوه حتى الانسحاق .. أتلاشى فيك. لأن محبتك يا حبيبى قوية بالموت.

وتلاشت أبيجايل فى داود. وتلاشى داود فى أبيجايل. ما هبط من فوقها حتى الصباح.

فى الصباح قامت أبيجايل. تناولت ثوبها. **قالت لداود فى دلال:**

- قد خلعت ثوبى ولا أعرف كيف ألبسه.
- ساعدها داود فى ارتداء ثوبها وهو يتحسس جسدها وكأنه طوال الليل ما ارتوى. **قال:**
- لا استطيع أن أفارقك لحظة.
- تأكد أننى سأعود. لكن قل لى: من أين لك بكل هذا الكلام الحلو الذى تغنيت به؟
- أنت ملهمتى.
- وأنت أيضاً الهمتنى. أنطقتنى بكلمات ما عرفتها وما أحسست بجمال وقعها من قبل.
- ستصير كلماتنا أغنية ونشيد.
- ربما تغنى بها من يأتى بعدنا.

- وربما نسبوها إلى أنفسهم وقالوا ترنيمة الترانيم أو نشيد الأناشيد.
- أنت المبدع. لابد وأن ينسب الكلام إليك.
- من يضمن الغد؟
- لا أحد. صدقت.

ذهبت أبيجايل إلى زوجها نابال مصحوبة ببعض غلمان داود. نظر إليها زوجها فى اندهاش. سأل:

- أين كنت طوال الليل؟ ومن هؤلاء العبيد؟

ردت فى هدوء وبرود:

- كنت عند داود. وهؤلاء بعض رجاله.
- ماذا كنت تفعلين طوال الليل عند داود؟
- أنقذتك من الدمار .. أنت وبيتك ومالك.
- بفخذيك وثدييك .. يا عاهرة؟!!

صرخت أبيجايل:

- اخرس أيها اللئيم الحقير.

تقدم نابال نحو زوجته. بصق فى وجهها. سحب أحد رجال داود رمحه. طعن نابال طعنة قاتلة. صاح نابال وهو يخر إلى الأرض:

- قتلتنى يا كلب داود.

ردت أبيجايل:

- مثلك لا يستحق سوى الموت. اسحبوه وادفنوه كى لا ينتن المكان برائحته القذرة.

بشّر رجال داود سيدهم بمقتل نابال. استولى داود على كل أملاكه حتى أبيجايل زوجة نابال أصبحت لداود زوجة. بعدها أضاف داود لنفسه زوجة أخرى اسمها "أخينوعم" وكانتا كلتاهما له امرأتين. ولما علم شاول بذلك اعطى ابنته ميكال زوجة لرجل آخر هو "فلطى بن لابش". لقد خان داود ميكال ابنة الملك بزواجه من امرأتين أخريين. إهانة لن يغفرها الملك.

لابد وأن يُعاقب داود. وهذه المرة لن ينجو من الموت.

***

خرج شاول ومعه ثلاثة آلاف من منتخبى إسرائيل كى يفتش على داود فى البرية حيث أقام داود. علم داود أن شاول قد بدأ يسعى وراءه من جديد. كانت له عيون ترصد. أخبروه عن يقين أن شاول قد جاء.

وتقول الحكاية إن سُبات الرب قد وقع على شاول ورجاله فناموا جميعاً.

اتجه داود إلى المكان الذى اضطجع فيه شاول فوجده نائماً هو وأبنير رئيس جيشه والشعب نزول حواليه. اصطحب معه أبيشاى ابن صروية أخا يوآب. وصلا إلى حيث اضطجع الملك. وجداه نائماً ورمحه مركوز فى الأرض عند رأسه.

قال أبيشاى لداود:

- قد حبس الله اليوم عدوك فى يدك. فدعْنى الآن أضربه بالرمح إلى الأرض دفعة واحدة ولا أثنى عليه.

ردَّ داود وهو يتأمل وجه شاول:

- - لا. لا تهلكه. لا أريد أن يكون دمه على رأسى وعلى رؤوسكم.
- هذه فرصة قد لا تتكرر.
- تدبر. من الذى يمد يده إلى مسيح الرب ويتبرأ؟
- إنه يسعى دوماً لقتلك. ولو تمكن منك ما أبقى عليك.
- لا أريد أن يقال إن داود قد قتل ملك إسرائيل طمعاً فى ملكه.
- أتشك فى ولائى لك؟
- لا.
- إذن أجبنى بوضوح: ألا تريد .. ألا تطمح؟
- أريد وأطمح. لكن لا أريد أن تصمنى إسرائيل بالخيانة والغدر .. أن يشير إلىَّ من يقول: هذا هو قاتل مسيح الرب. بعدها لن استطيع الاقتراب من كرسىَّ العرش. أريد العرش والشعب معاً.
- ماذا ترى إذن؟
- أترك ذلك للرب. متأكد أنا أن الرب سوف يضربه أو يأتى يومه فيموت أو ينزل إلى الحرب ويهلك. والآن نأخذ الرمح الذى عند رأسه وكوز الماء ونرحل.

أخذ داود الرمح وكوز الماء من عند رأس شاول. لم يحس به أو بصاحبه أحد. كان الجميع فى سبات عميق.

فى الصباح وقف داود على رأس جبل ونادى:

- أما يجيبنى أحد؟

ردَّ أبنير بن نير:

- من ذلك الذى ينادى الملك؟
- داود أنا!!
- أيها المارق الخارج عن طوع الملك. لن يغفر لك الملك ولن يسامحك الشعب.
- لا تهددنى يا أبنير ولا توبخنى .. بل وبِّخْ نفسك ووجه لها اللوم لأنك قصرت فى حق الملك.
- أنا أقصر فى حق الملك؟ لابد وأنك قد فقدت وعيك. لكن هذا الكلام ليس بمستغرب عندما يصدر من خائن مثلك.
- استمع إلىَّ ولا تقاطعنى. وستدرك فى الحال مدى خطورة ما أقول.
- تكلم.
- أما أنت رجُلٌ ومن مثلك فى إسرائيل. فلماذا لم تحرس سيدك الملك؟ لأنه قد جاء واحد من الشعب كى يهلك سيدك. ليس حسن هذا الأمر الذى عملت. إنكم أبناء الموت أنتم لأنكم لم تحافظوا على سيدكم مسيح الرب. فانظر الآن أين هو رمح الملك وكوز الماء الذى كان عند رأسه.
- كيف جرؤت.
- أعاننى الرب فقدرت. والآن فليتحدث إلىَّ الملك.

عرف شاول صوت داود. سمع ما دار بينه وبين أبنير من حوار. تيقن أنه كان فى قبضة داود ولو شاء داود قتله لفعل. قال فى صوت ليّن النبرات:

- أهذا صوتك يا ابنى يا داود؟
- نعم. إنه صوتى يا سيدى الملك. أنا عبدك يا سيدى. حياتى كلها فداء لك. يحيرنى أن يسعى سيدى لقتلى وأنا برئ من أى ذنب. لماذا يسعى سيدى ورائى كل هذا السعى؟ ماذا عملت وأى شر اقترفته يداى؟ هل أهاجك الرب ضدى أم أن بنى الناس قد سعوا بالوشاية ضدى كى أطرد وأحرم من الانضمام إلى نصيب الرب؟ أتريدنى يا سيدى أن أذهب أعبد آلهة أخرى؟ أهكذا يكون نصيب داود الذى خاطر بحياته أمام العملاق جليات دفاعاً عن شعب إسرائيل وكى يأمن الملك؟

أجاب شاول وقد بدت فى صوته رنة صدق:

- قد أخطأت. ارجع يا داود لأنى لن أسئ إليك بعد.
- هو ذا رمح الملك. فليعبر واحد من الغلمان ويأخذه أما أنا فلن يكون اعتمادى إلا على الرب. من كل ضيق هو ينقذنى.

***

لم تطمئن نفس داود. لم يصدق شاول عندما طلب منه الرجوع وأكد له أنه أبداً لن يسئ إليه. قال فى صوت هامس وكأنه يحدث نفسه:

- لن يكف شاول عن مطاردتى. وإذا استمر الأمر على هذا الحال فأنا لا محالة هالك بيده. كيف الخلاص .. وإلى أين المفر؟؟

لم يكن أمام داود من مخرج إلا أن يفر إلى أرض أعداء شاول الذين كانوا أعداءه هو أيضاً والذين قتل منهم مائتين غدراً كى يقدم رؤوسهم مهراً لابنة شاول .. لن يفلت إلا إذا تسلل إلى أرض الفلسطينيين ونجح فى إقناعهم أنه قد أصبح لهم يداً على شاول وعلى شعب إسرائيل.

هكذا قرر داود أن يغير الولاء .. أن يتلون كالحرباء.

عبر داود هو والست مائة رجل الذين معه إلى أرض الفلسطينيين. سعى إلى لقاء "أخيش" ملك "جَتّ". انحنى أمامه. سجد. قبّل الأرض عند قدميه. **سأله أخيش فى خشونة:**

- أية ريح قذفت بك إلى موطئ نعالنا يا ابن يسّى؟

أجاب داود فى مذلة ظاهرة:

- رياح خير يا سيدى. سيفى فداء للملك!!
- كان سيفك بالأمس فداء لشاول وشعب إسرائيل كيف يصبح اليوم فداء لملك "جت" وشعب فلسطين؟ هل صار سيفك لمن يشتريه – لمن يدفع أكثر؟
- حاشا لله أن يبيع سيفى ويشترى يا سيدى الملك ، لكن شاول طوال الوقت يطلب نفسى .. يسعى لقتلى .. يعتبرنى أعدى أعدائه .. أشد من الفلسطينيين خطراً على مملكته. أنتم هنا يا سيدى أصحاب الأرض .. أنتم الأصل .. وقد جئت كدخيل أطلب حماية الملك. فليتخذنى الملك عبداً وليختبر صدق ولائى.

- لا يُختبر الولاء بالكلمات بل بالأفعال. نعطيك إحدى قرى الحقل. تسكن هناك أنت ورجالك. نريد أن نرى ما ستفعله بشعب إسرائيل كي تكسب ثقتنا.. وكي نطمئن لبقائك بيننا وعلى أرضنا. لن يكون عيشك هنا بلا ثمن .. لن يكون صدقة فأنت بما فعلت بجوليات لا تستحق الصدقة .. بل القتل.
- مولاى ارحم واغفر .. انتظر وانظر ما سأفعل.
- تستطيع أن تضرب من قومك يهوذا .. أول من تضرب؟
- يا سيدى أضرب يهوذا وغير يهوذا. أنا سيف الملك وعبده. وليوجه الملك سيفه وعبده إلى حيث يشاء.

ضرب داود جنوبى يهوذا. لم يستبق رجلاً ولا امرأة.. حتى الشيوخ والأطفال أعدمهم بحد السيف. عاد بالغنائم والسلب بعد أن حرق الأرض.

وهكذا كانت عادته كل أيام إقامته فى بلاد الفلسطينيين. لابد من إظهار الولاء وإرضاء الملك مهما كان الثمن.. حتى ولو كان الثمن هو تقتيل الشعب الذى ينتمى إليه وحرق أرضه ونهب مدنه. ما عاد يهم. المهم هو أن ينجو داود ويعيش.

ومن الشر الذى فعله داود بأهله صدَّق أخيش أن داود قد أصبح من أخلص عبيده. قال لمن حوله:

- قد صار داود مكروها لدى شعبه إسرائيل .. سيظل عبداً لى إلى الأبد.

وجد الفلسطينيون فى تمرد داود على شاول وخيانته لشعبه فرصة لضرب شاول وإزاحة بنى إسرائيل وإخراجهم من الأرض التى أخذوها غضباً وغدراً. جمعوا جيوشهم واستعدوا لمعركة فاصلة حاسمة الهزيمة فيها لأى من الطرفين هى الموت.

قال أخيش لداود وقد تأهبت الجيوش:

- أعلم يقيناً أنك ستخرج معى فى الجيش أنت ورجالك.
- تشريف يفوق كل تصوراتى يا مولاى الملك.
- تعلم أن ستحارب ضد شعبك وملكك. وإن لم يقتلوك هم سيحصد سيفك منهم أرواح الكثرة.
- أعداء مولاى هم أعدائى. ولا شعب لى إلا هذا الشعب الذى أعيش الآن على أرضه .. ولا ملك لى إلا أنت يا مولاى أسجد لك ولا أرفع هامتى إلا بأمرك.
- أتمنى أن تثبت فى وسط الميدان بالفعل قولك.
- سترى يا سيدى ما يفعل عبدك.

***

جمع شاول كل رجاله ورؤساء جيشه. وكان لما رأى جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه. قال لمن حوله:

- أرى أننا مقدمون على معركة مهولة أخاف عاقبتها على كل إسرائيل. ماذا ترون أنتم؟
- ليس أمامنا أيها الملك إلا القتال.
- أو الموت!!

- الموت يا مولانا خير من مذلة الانكسار. لكن لماذا تفترض الهزيمة ولا تتوقع النصر؟ هل نسيت أن رب الجنود يحارب دوماً فى وسطنا؟
- كنت أتمنى أن استمع إلى صوت الرب. لكن صموئيل مات ودفن. ولا توجد فى الأرض قوة قادرة على إحضاره من بين الموتى.

رد أحد قادة شاول قائلاً:

- هناك يا مولاى امرأة صاحبة جان تقدر.
- هل نسيت أننى قد أمرت بنفى أصحاب الجان والتوابع من الأرض؟
- أعلم يا مولاى. لكن هذه المرأة ماتزال تعيش بيننا .. متخفية وقد أوقفت كل صلة لها بالعالم الآخر. ماعادت تمارس سحرها. لو أراد سيدى لقاءها أنا أعرف مكانها.

تنكر شاول ولبس ثياباً أخرى. ذهب هو ورجلان معه. جاءوا إلى المرأة ليلاً. **قال لها شاول:**

- اعرفى لى بالجان وأصعدى لى من أقول لك.
- يا سيدى أنت تعرف ما فعل الملك بأصحاب الجان وكيف قطعهم من الأرض. فلماذا تضع شركاً لنفسى لتميتها؟
- أفعلى كما آمرك وأقسم لك أن لن يصيبك مكروه ولن يلحقك إثم فى هذا الأمر.
- من تريد أن أصعد لك؟

- صموئيل. أصعدى لى صموئيل!!

فلما رأت المرأة صموئيل أمامها صرخت بصوت عظيم. **تكلمت إلى شاول وأوصالها ترتعد:**

- لماذا خدعتنى أيها الملك .. وأنت شاول؟!!
- لا تخافى يا امرأة. لن يمسك سوء. ماذا رأيت؟
- رأيت آلهة يصعدون من الأرض.
- أية صورة تلك التى ترينها الآن؟
- رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة.
- إنه صموئيل.

خرَّ شاول على وجهه إلى الأرض. سجد. قال صموئيل القادم من بين الموتى:

- لماذا أقلقتنى وأزعجتنى بإصعادك إياى؟

قال شاول:

- ما فعلت ذلك إلا من شدة ضيقى. ضاق بى الحال يا رجل الله. الفلسطينيون يحاربوننى. والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى فدعوتك كى تُعْلمنى ماذا أصنع؟
- ولماذا تسألنى أنا؟ الرب قد فارقك وصار عدوك لأنك لم تنفذ تعاليمه. شقَّ المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود. ويدفع الرب إسرائيل أيضاً ليد الفلسطينيين وغداً تكون أنت وبنوك معى فى عالم الموتى.

سقط شاول إلى الأرض. أخذ يلطمها بيديه ويهيل التراب على رأسه. **صاح وهو يبكى:**

- غداً هو الموت يا إسرائيل .. هذا ما قال به صموئيل!!

***

جمع الفلسطينيون جميع جيوشهم وتقدموا بقوة تجاه الإسرائيليين النازلين على العين التى فى يزرعيل. عبروا بالمئات وبالألوف. كان داود ورجاله فى المقدمة. أعلن داود أنه هو ورجاله جميعاً على استعداد للموت من أجل الفلسطينيين ومن أجل "أخيش" الملك. لفت سلوكهم هذا أنظار رؤساء الفلسطينيين. سألوا أخيش فى استياء وإزدراء:

- ما هؤلاء العبرانيون؟

أجاب أخيش:

- هذا داود الذى كان عبدا لشاول. هو الآن أحد عبيدى.
- هذا العبد خائن بطبعه. سيخونك كما خان من قبل مليكه وبلده وشعبه.
- لا أريد أن يسخط منكم أحد. ماذا ترون فى أمره؟
- يعود ومن معه من عبيد إلى الموضع الذى عينت له. لا ينزل معنا إلى الحرب. من يضمن أنه لن ينقلب علينا ويكون لنا عدواً؟ قد يُبيت لنا الغدر كى يرضى سيده السابق. وبماذا يرضيه؟ أليس برؤوس هؤلاء الرجال .. رجالنا نحن الفلسطينيون. لن يكون هذا العبد بيننا ونحن نقاتل. مُرْه أن يخرج هو وأتباعه من بين الصفوف.

استدعى أخيش داود. قال له:

- من يوم جئت إلىَّ ما وجدت فيك شراً أو سوءاً إلى اليوم. أما فى أعين أقطاب الفلسطينيون فأنت لست بصالح. إنهم لا ينسون أنك قاتل جليات .. ولا يصدقون أنك ستقاتل بإخلاص تحت رايتنا. يقولون إنك خنت شعبك .. ومن خان مرة ليس من المستبعد أن يعود ويخون. الآن ارجع إلى المكان الذى حددته لإقامتك. انتظر حتى ينتهى القتال, بعدها ننظر فى أمرك أنت ومن معك.

توسل داود وهو جاث على ركبتيه:

- ماذا فعلت وماذا اقترفت؟ ماذا وجدت فى عبدك من يوم صرت أمامك إلى اليوم؟ أتوسل إليك وأنا جاث أمامك هكذا على ركبتى ألا تحرم عبدك من محاربة أعداء سيدى الملك.
- أنت أمامى لا عيب فيك. تبدو فى عينىَّ صالحاً كملاك الرب. لكن رؤساء الفلسطينيين لا ثقة لهم فيك .. لا يطيقونك بينهم .. يتوقعون منك الغدر فى أية لحظة. قالوا أبداً لن يصعد معنا إلى الحرب. والآن إذا بكر الصباح عُدْ أنت ومن معك من عبيد لا تفكر مطلقاً فى صحبة الجيش.

صعد الفلسطينيون إلى يزرعيل. لم ينتظروا. هاجموا فى ضراوة. بدأت الحرب سريعة خاطفة دموية بصورة لم يألفها رجال إسرائيل رغم كل تاريخهم الطويل المُدنس بالقتل والنهب والتدمير تنفيذاً لأوامر الإله الدموى .. رب الجنود .. إله إسرائيل.

رجحت كفة الفلسطينيين وجَبُن الإسرائيليون وهم دائماً جبناء عند ملاقاة العدو وجهاً لوجه. أسرعوا بالفرار. رغم ذلك سقط منهم قتلى عدد كبير. تخلوا عن ملكهم وعن بنيه. وكل منهم لا يطلب النجاة إلا لنفسه حتى ولو هلك كل ماعداه من بنى إسرائيل.

انكشف شاول وبنوه أمام ألوف الفلسطينيين الزاحفين كالطوفان الهادر لا يبقى فى طريقه من أحد ولا يذر. قُتل ثلاثة من أبناء شاول أمام عينيه: يوناثان وأبيناداب وملكيشوع. كانت اللحظة مأساوية بالنسبة لملك سقط حوله قتيلاً كل من ثبت فى الميدان وفرَّ من حوله كل من انخلع قلبه من رجال إسرائيل.

لم تكن هناك حماية للملك. تصيِّده أحد الرماه. جُرح. ثبته الجرح. أدرك أن نهايته قد حانت. لم يكن معه من أحد سوى حامل سلاحه. قال له شاول ودمه ينزف بغزارة:

- استل سيفك واطعنى به لئلا يأتى هؤلاء الغلف ويطعنوننى ويقبحوننى.

لكن حامل سلاحه خاف. ما كان باستطاعته أبداً أن يمد يده إلى مسيح الرب. أخذ شاول سيفه وسقط عليه. وضع نهايته بيده. أسدل الستار. مات ملك إسرائيل.

الفصل الرابع
داود ملكاً

الفصل الرابع
داود ملكاً

بعد المعركة وجد الفلسطينيون شاول وبنيه الثلاثة بين القتلى.

قال أخيش ملك جت:

- أرسلوا البشرى فى كل أرض فلسطين: هُزمت إسرائيل وقُتل ملكهم شاول وبنوه.
- ماذا نفعل بأجسادهم؟ نلقيها فى العراء كى تلتهمها الكواسر؟
- لا. اقطعوا رأس شاول واعرضوها على رمح أمام أعين الناس. أما جسده وأجساد بنيه فعلقوها على سور "بيت شان" كى تكون عبرة. لقد اغتصبوا أرضنا وقتلوا أهلنا وأبادوا ودمروا وأحرقوا ، بوحشية لا بشرية ، كل ما وصلت إليه أيديهم ، وادعوا أنها أوامر الرب ووعده لهم منذ مئات السنين. ما توقعوا أبداً أن يفعل بهم أحد ما فعلناه نحن وهو حق وعدل فالشر لا يجازى إلا بالشر ومهما طال الزمن ومرت السنون، أرضنا المغتصبة لابد وأن تعود. والدم المسفوك لا ثمن له إلا الدم المسفوك.

علم داود بما حدث. كان عبيده يرصدون الأحداث .. يبلغونه فى الحال. كان من شدة حذره وحرج موقفه لا يكاد ينام. **سأل أحد عيونه:**

- كيف حدث ما حدث؟ وكيف تمت هزيمة إسرائيل بهذه الصورة المروعة المذلة؟

- لقد هرب الشعب يا سيدى من القتال بعد أن سقط من القتلى كثيرون.
- أخبرنى كيف قتل الفلسطينيون شاول.
- الفلسطينيون لم يقتلوه.
- كيف مات إذن؟
- سمعت يا سيدى روايتان مختلفتان. يقال إنه عندما شهد الهزيمة الصاعقة وتأكد أنه لا سبيل إلى الخلاص. طلب من حامل سلاحه أن يقتله قبل أن تصل إليه سيوف الفلسطينيين. وعندما رفض الغلام أن يُمسَّ مسيح الرب سقط شاول على سيفه ومات .. وكذا فعل الغلام. أما الحكاية الأخرى فقد سمعتها من غلام عماليقى أحضرته معى على أمل أن تمنحه ما يستحق. إنه يمنى نفسه بالكثير.
- أين الغلام؟
- إنه بالباب.

سأل داود الغلام بعد أن أحضروه:

- من أين أنت؟
- أنا ابن رجل غريب عماليقى.
- كيف عرفت أن شاول قد مات؟
- تصادف يا سيدى أنى كنت فى الجبل (جبل جلبوع) والمعركة تقارب نهايتها وقد فرَّت جموع إسرائيل. وإذا بشاول يتوكأ على

رمحه والمركبات والفرسان يشدون وراءه. لم يكن له من منقذ ولم يكن له من مهرب. التفت وراءه فرآنى. نادى:

- يا غلام.

قلت:

- ها أنذا.

- من أين؟

قلت:

- عماليقى أنا.

- هل باستطاعتك أن تؤدى لى خدمة قد تكون آخر ما أطلب.

- لو قدرت أفعل. والموقف كما ترى يا سيدى صعب وعصيب.

- تقدر يا غلام.

- مرنى يا سيدى.

- قف علىَّ واقتلنى لأنه قد اعترانى الدوار. والعدو كما ترى مطبق ولا سبيل إلى نجاة أو فرار.

سأل داود الغلام:

- بعد أن استمعت إليه فى حالة يأسه.. هل نفَّذت له رغبته؟

- نعم يا سيدى. قتلته. كان من المستحيل أن يعيش بعد سقوطه.

- أخذت سلبه؟

- أخذت الإكليل الذى على رأسه والسوار الذى على ذراعه.

- قتلته وسلبته!!

- لقد أتيت بهما إلى ههنا يا سيدى.

صرخ داود فى الغلام:

- يا عماليقى.. كيف جرؤت أن تمد يدك لتهلك مسيح الرب؟ ألم تخف؟ ألم ترتعد يدك وأنت ترفع السيف؟

- هو طلب وأنا استجبت. ما هى خطيتى؟

أشار داود إلى أحد غلمانه:

- تقدم.

- أمرك سيدى.

- خذ هذا العماليقى. أوقع به.

صرخ العماليقى:

- لماذا سيدى؟

أجاب داود:

- دمك على رأسك. فمك شهد عليك قائلاً أنا قتلت مسيح الرب.

ضرب الغلام العماليقى بالسيف فى بطنه فخرج من ظهره. مات.

بكى داود شاول وولده يوناثان. مزّق ثيابه وكذا فعل جميع الرجال الذين معه. بكوا وصاموا جميعاً إلى المساء. وعلا بكاؤهم وندبهم على شاول وعلى يوناثان وعلى شعب الرب وعلى بيت إسرائيل الذين سقطوا بحد السيف.

لام داود نفسه. كيف تخلى عن مليكه وانضم إلى عدوه. كيف خان؟! ألم يعاهد الرب أن لا يتخلى أبداً عن يوناثان؟ كيف خان يوناثان الحبيب الذى وقف إلى جانبه فى أحلك لحظات حياته وعارض أباه

وأغضبه؟ ها هو ذا يوناثان قد مات بأيدى الفلسطينيين الذين سعى داود إليهم وحاول أن يتقدم صفوفهم كى يحارب ملكه وأهل بيت إسرائيل .. أهل بيته. دم هؤلاء جميعاً على رأسه. لكنه كان فى تلك اللحظة عاجزاً مشلول الإرادة لا يملك إلا كلمات الرثاء.

"نشيد القوس" كان المرثاه التى رثا بها داود شاول وولده يوناثان، وهى مرثاه تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل:

الظبى يا إسرائيل مقتول على شوامخك. كيف سقط الجبابرة. لا تخبروا فى جت. لا تبشروا فى أسواق أشقلون لئلا تفرح بنات الفلسطينيين...

من دم القتلى من شحم الجبابرة لم ترجع قوس يوناثان إلى الوراء وسيف شاول لم يرجع خائباً.

شاول ويوناثان المحبوبان والحلوان فى حياتهما لم يفترقا فى موتهما. اخف من النسور وأشد من الأسود يا بنات أورشليم أبكين شاول ...

كيف سقط الجبابرة فى وسط الحرب. يوناثان على شوامخك مقتول .. كيف سقط الجبابرة وبادت آلات الحرب!!

***

لم تطل حيرة داود. لن يظل عبداً للفلسطينيين فقد مات شاول. تسلل إلى "حبرون" هو وامرأتاه أخينوعم وأبيجايل. تبعه كل من كان معه من رجال. فى حبرون التقى داود بشيوخ يهوذا. سألوه فى غضب لم يحاولوا إخفاءه.

- كيف فعلت ما فعلت؟

تظاهر داود بعدم الفهم. سأل بدوره:

- ماذا فعلت؟
- انضممت إلى صفوف الفلسطينيين وحاربت قومك.
- أنا؟!!
- نعم بكل تأكيد أنت.
- لتقطع يدى إن كنت قد رفعت سيفاً ضد شعب الرب. هم طلبوا منى أن أكون فى مقدمة الصفوف ورفضت.
- كنت إذن فى المؤخرة.
- لا فى المقدمة ولا فى المؤخرة. لقد أعلنت رفضى فى حسم وانسحبت. كنت أعلم أن جزائى قد يكون الموت. لكنى نجوت. وهأنذا الآن بينكم أقسم أنى أنا خادم يهوذا وخادم شعب الرب.

صمت الشيوخ لحظات. استغل داود لحظات الصمت. قال بصوت قوى النبرات:

- أنسيتم يا شيوخ يهوذا ما فعله داود من أجل إسرائيل؟ ألست أنا داود الذى وقف فى وجه العملاق الجبار: جليات الفلسطينى الذى أذل إسرائيل وأثار فيها الرعب أربعين يومًا.. وهو يخرج كل يوم فى صلف وكبرياء يطلب النزال؟ هل جرؤ رجل واحد من كل إسرائيل على الخروج إليه؟ ما جرؤ أحد. أنا تقدمت رغم حداثة سنى وقلة خبرتى وقتلت جبار الفلسطينيين وقطعت رأسه. بعدها أصاب قومه الفزع فانهزموا. هل نسيتم أننى أنا داود الذى غنت له كل إسرائيل وغنيتم أنتم أيضاً له. أنا لم

أخطئ فى حق الملك. طلب منى أن أقتل مائه من الفلسطينيين وأتى برؤوسهم مهراً لابنته فقتلت مائتين. لكنه كان دوماً يكرهنى. كم حاول هو نفسه أن يقتلنى ضرباً بالرمح. لكن الرب كان منقذى. شاول كان يخشى أن أتطاول يوماً فأنازعه الملك. ما دار هذا أبدا بخلدى وأنا عبده. لكن صموئيل قبل أن يموت هو الذى تنبأ .. هو الذى قال.

قاطعوه فى فضول:

- بماذا تنبأ صموئيل؟ ماذا قال؟
- قال إن روح الرب قد غادرت شاول لأنه عصى وأن الرب قد اختار داود كى يكون مسيحه. بل إن شاول نفسه أخبرنى بوضوح فى أخريات الأيام أنه علم أننى سأكون ملكاً على إسرائيل. قال بالحرف الواحد: "والآن فإنى علمت أنك تكون ملكاً وتثبت بيدك مملكة إسرائيل.
- هل سمع ذلك أحد؟ هل من شاهد؟
- كثرة ويمكنكم السؤال.. إن لم تكونوا قد اقتنعتم بما قاله رجل الله صموئيل.
- صموئيل يتحدث باسم الرب.. كلماته صدق يتحقق ونبواءاته لا تخيب.

أضاف داود وقد ازدادت ثقته فى نفسه وفى مقدرته على الوصول إلى ما يريد:

- يا شيوخ يهوذا.. أنتم الكبار من ذوى العزم والعلم والفهم .. ما خفى عليكم ما فعله شاول بـ "أخيمالك بن أخيطوب" الكاهن وجميع بيت أبيه الكهنة. لقد أمر بقتلهم جميعاً .. خمسة وثمانين رجلاً لابسى أفود كتان. لم يكتف بذلك. ضرب مدينة الكهنة بحد السيف. لم ينج إلا أبياثار أحد أبناء أخيمالك. ها هو ذا أمامكم الآن وقد صحبنى منذ مقتل أهل بيته. لو سمحتم يتحدث إليكم أبياثار.
- ماذا عنده كى نستمع إليه؟

تقدم أبياثار الكاهن حتى وقف إلى جوار داود. قال:

- شاهد أنا على صدق كلمات داود. لقد قتل شاول أبى وكل أهل البيت ثم أمر بتدمير البلدة لسبب واهن ما كان ليستحق كل هذا الجرم الآثم.

سأل أحد شيوخ يهوذا:

- أى سبب واهن ذلك الذى تدعيه؟
- أنا يا سيدى لا أدعى. أقرر ما حدث بالفعل لا أنقص منه ولا أزيد. كان داود جائعاً لم يذق طعاماً منذ أيام. لجأ إلى أبى وطلب خمس خبزات. لم يكن هناك سوى الخبز المقدس. أعطاه أبى منه ما يسد رمقه. ما كان للكاهن أن يترك نفسا تموت جوعاً وأمامه خبز سيرفع من أمام الرب بعد برهة كى يوضع خبز ساخن محله. وكانت النتيجة تلك المذبحة الظالمة المروعة. هذا كل ما عندى. ليس لدى ما أضيف.

قال داود:

- أسمعتم إلى أبياثار .. الكاهن الوحيد الذى نجا من سيف شاول.. وهو شاهد صدق حى. والآن حكموا عقولكم اتخذوا قراركم. وتأكدوا أن داود ما هو إلا عبد وخادم لبيت يهوذا ولكل شعب الرب.. شعب إسرائيل.

همهم شيوخ يهوذا فيما بينهم لحظات.. تحدث أحدهم قال:

- لقد أنقذ داود إسرائيل مرة. وأنا على يقين مطلق أنه قادر على أن ينقذها مرة أخرى. لا يوجد الآن من هو فى قدر داود واقتداره وقوته. لقد اختاره الرب كى يكون مسيحه. ليكن داود ملكاً.

لم يعترض أحد.

وهناك فى حبرون مسحوا داود ملكاً على بيت يهوذا.

***

سمع سكان "يابيش جلعاد" بما فعل الفلسطينيون بشاول. قامت مجموعة منهم من ذوى البأس وقد صمموا على استعادة جسد شاول وأجساد بنيه. لن يتركوها كى تتعفن وتمزقها الجوارح والغربان. شاول كان ملكاً وكان مسيح الرب .. استرجاع جسده واجب مقدس لن يتوانوا عنه حتى ولو فقدوا الحياة.

ساروا طوال الليل حتى وصلوا إلى حيث الأجساد المعلقة. كانت البلدة كلها فى حالة سبات عميق .. نام أهلها فى اطمئنان بعد أن اندحر عدوهم وقتل ملكهم وما عاد لهم فى الأرض من بأس يخشاه حتى أصغر أبناء الفلسطينيين.

أخذ المتسللون فى الليل جسد شاول فى هدوء وكذا أجساد بنيه .. كانت مسمرة على سور "بيت شان" .. عادوا بها. أحرقوها. دفنوا العظام. صاموا سبعة أيام.

عندما علم داود بما فعل شيوخ إسرائيل ، أرسل فى الحال رسلاً إلى كبرائهم يهنئهم على نجاح ما سعوا إليه ويباركهم لأنهم صنعوا معروفاً بسيدهم شاول فدفنوه. أخبرهم أنهم قد فعلوا خيراً ولن يجازوا على الخير إلا الخير. نصحهم أن يقفوا إلى جانبه وأن يؤازروه بعد أن مات سيدهم شاول وبعد أن قام بيت يهوذا بمسحه ملكاً عليهم.

***

لم يعترف من تبقى من بيت شاول بداود ملكاً على يهوذا أو على غير يهوذا. حمل "أبينير بن نير" – قائد جيش شاول – مسئولية أن يستمر الملك فى بيت شاول حتى ولو أدى ذلك إلى نشوب قتال. أخذ "إيشبوشت" بن شاول وأجلسه على كرسى العرش .. جعله ملكاً على كل إسرائيل. كان عمر إيشبوشت عندئذ أربعين عاماً وملك على إسرائيل لمدة عامين. لكن بيت يهوذا لم يعترفوا به ملكاً. كان ولاؤهم لداود. وملك داود فى "حبرون" على بيت يهوذا لمدة سبع سنين وستة أشهر.

كان لابد من نشوب قتال بين أتباع إيشبوشت بن شاول وأتباع داود بن يسّى كى تتوحد المملكة بانكسار أحد الطرفين واستسلامه للطرف الآخر.

خرج أبنير بن نير رئيس جيش إيشبوشت على رأس آلاف الرجال لمحاربة داود والقضاء على انشقاقه وتمرده. وخرج يوآب بن صروية قائد جيش داود على رأس كل من هو قادر على حمل السلاح

من رجال داود. التقى الجمعان على بركة "جعبون". عسكر كل فريق على جانب من البركة فى انتظار أن يبدأ طرف منهما القتال. ولمّا طال الوقت بلا قتال نادى "أبنير" على يوآب:

- يايوآب .. أما أتيتم للقتال؟

أجاب يوآب:

- ماذا تظن؟ أتظن أننا قد سللنا السيوف كى نذبح ذبيحة نطعم بها الغلمان؟

- إذن فليخرج رجل من عندك ليقاتل رجلاً من عندى.

- سيخرج من عندى أثنى عشر رجلاً فأخرج نفس العدد.

التقى الرجال على جانب البحيرة. تضاربوا بالسيوف وسقطوا جميعاً قتلى. بعدها التحم الجيشان فى قتال شديد لم يتحمله جيش إيشبوشت. انكسر أبنير ورجاله أمام يوآب وعبيد داود. بدأوا الانسحاب ثم الفرار.

كان هناك بنو صروية الثلاثة: يوآب وأبيشاى وعسائيل. وكان عسائيل خفيف الرجلين سريع الحركة يجرى كالظباء. اقتفى أثر الجيش المنهزم. كان هدفه "أبنير بن نيْر. سعى وراءه ولم يمل إلى يمين أو يسار. ما غاب أبنير عن عينيه لحظة.

شعر أبنير أن هناك من يطارده. توقف. التفت وراءه. سأل:

- أأنت عسائيل؟

- نعم أنا هو!!

- لماذا تقتفى أثرى؟

- أنت تعرف لماذا أنا وراءك.
- لا أعرف .. ماذا تبغى؟
- أقتلك!!
- تقتلنى أنا؟
- نعم.
- هذا أكبر من كل مقدراتك يا عبد داود. الأنسب لك أن تميل إلى يمين أو يسار. يكفيك أحد الغلمان. أقتله وخذ لنفسك سلبه .. ثم عد إلى أهلك سالماً.
- أتخشى حد سيفى؟ تخاف منازلتى؟
- أنا لا أخشاك يا ابن صرويه .. ولا كل عبيد داود. ملْ من ورائى كى لا أقتلك. إذا ضربتك إلى الأرض كيف أرفع وجهى لدى يوآب أخيك؟
- جبان أنت يا أبنير تخشى القتال.

هنا لم يتمالك أبير نفسه. انقض على عسائيل فى ضراوة مفاجئة. زج الرمح فى بطنه فخرج من خلفه. سقط عسائيل ومات فى مكانه.

تجمَّع المنهزمون من بيت إسرائيل مرة أخرى حول أبنير. صاروا جماعة واحدة. وقفوا على رأس أحد التلال. سعى يوآب وأخوه أبيشاى وراء أبنير ورجاله. لم يكن باستطاعتهم القتال من جديد بعد أن غابت الشمس.

نادى أبنيْر يوآب قال:

- هل إلى الأبد يأكل السيف يا موآب؟

لم يكن يوآب حتى تلك اللحظة قد علم بمقتل أخيه عسائيل وأن القاتل هو أبنيْر لذا **أجاب:**

- لا. لكنكم أنتم أول من خرج للقتال.
- ألم تعلم أنها تكون مرارة فى النهاية. قل للشعب يا موآب أن يرجعوا من وراء إخوتهم.
- حى هو الرب وحق ما تقول. لو لم تتكلم لكان الشعب فى الصباح قد صعد كل واحد وراء أخيه.

أمسك يوآب بالبوق. ضرب. انصرف أبنيْر ورجاله. عبروا الأردن. ورجع يوآب من وراء أبنيْر. تمّ إحصاء القتلى: تسعة عشر رجلاً من عبيد داود إلى جانب عسائيل أخى يوآب .. وثلاثة مائة وستين رجلاً من رجال أبنيْر. عندها عرف يوآب أن أخاه قد قتل وعرف أيضاً من هو قاتله.

***

دارت الحرب وطالت بين بيت شاول وبيت داود. ما كان داود ليتخلى أبداً عن فكرة أن يكون ملكاً على جميع إسرائيل. لم يفكر فى عدد الأرواح التى أزهقت ولا فى عدد الثواكل الباكيات على رجالهن الذين أكلهم السيف ولا فى عدد الصبية الذين فقدوا الآباء .. السيف والدم والنار والمعارك الطاحنة .. كل هذا لا يهم .. المهم هو أن يجلس داود على عرش إسرائيل .. كل إسرائيل.

كان بيت شاول يضعف وأبنيْر يخسر المعارك الواحدة تلو الأخرى. أما عن إيشبوست الملك فقد كان عاجزاً لا يملك من الأمر

شيئاً لدرجة أنه كان يخشى أبنيْر قائد الجيش. وكان أبنيْر بدوره لا يكترث بذلك الجالس على العرش .. كان فى الحقيقة يحارب من أجل نفسه لأن أمور المملكة كانت كلها بيده وكأنه هو وحده صاحب السلطان. وبلغ من تطاوله على بيت الملك أن دخل بإحدى سرارى شاول .. عاشرها معاشرة الأزواج وما هى بزوجة له. وعندما عاتبه إيشبوشت على فعلته الدنية ، صرخ فى وجهه وثار عليه كأنه يثور على عبد له. قال:

- تطالبنى بإثم امرأة؟ ألا تعرف ما أفعل من أجل بيتك وبيت أبيك. لولاى لتم سحقكم جميعاً فى ايام معدودات ومحوكم جميعاً من الوجود ومن الذاكرة .. بإمكانى أن أسلمك ليد داود كى تكون له عبداً بين العبيد. تلومنى لأننى عاشرت أمرأة كانت يوماً سُرِّيَّة لأبيك؟ سأريك اليوم ما أستطيع فعله .. سأجعل من داود ملكاً على جميع إسرائيل.
- أنت يا أبنيْر؟!!
- نعم أنا .. أتظننى رأس كلب؟ اليوم أنقل المملكة من بيت شاول وأقيم كرسى داود على إسرائيل وعلى يهوذا من "دان إلى بئر سبع".

وفى الحال أرسل أبنيْر رسلاً إلى داود يعلن ولاءه واستعداده لرد جميع إسرائيل إليه. قبل داود ما عرضه أبنيْر لكنه اشترط شرطاً مُلزماً كان على أبنيْر أن ينفذه قبل أن يلتقى بداود. قال فى رسالته على لسان أحد رسله:

- حسناً. إنى أقطع معك عهداً إلا أنى أطلب منك أمراً واحداً وهو أن لا ترى وجهى ما لم تأت أولاً بميكال بنت شاول.

فى نفس الوقت أرسل داود رسولاً إلى إيشبوشت **يقول:**

- اعطنى امرأتى ميكال التى خطبتها بما طلبه أبيك.

أرسل إيشبوشت إلى ميكال. حضرت ومعها زوجها. **قال إيشبوشت:**

- لقد خطبك داود قبل أن يتزوجك هذا الرجل.

قالت: - نعم.

- هو الآن يريدك لأنه سبق ودفع المهر الذى طلبه أبوك.
- وأنا أيضاً أريده فقد أختاره قلبى منذ رأيته.
- وهذا الرجل زوجك؟
- أنا ما اخترته وما أردته. كانت إرادة الملك بعد فرار داود.
- وها هو ذا داود قد عاد بقوة وسلطان.
- وأنا إليه أعود.

خرج زوجها يبكى خلفها. ما أعارته انتباها.. ما التفتت إليه. أمره أبنير بالرجوع. صاح فيه.

- ارجع. عُدْ من حيث أتيت. هل تسمع؟

ما جرؤ ذلك الزوج التعس على أن يستمر فى المسير. وعادت ميكال إلى حبيبها داود.

اجتمع أبنير بشيوخ إسرائيل. قال:

- كنتم منذ أمس وما قبله تطلبون داود ليكون ملكاً عليكم. فالآن افعلوا. لأن الرب كلم داود قائلاً إنى بيد داود عبدى أخلص شعبى إسرائيل من يد الفلسطينيين ومن أيدى جميع أعدائهم.

رد أحد الشيوخ:

- لكنك كنت حتى أمس تقاتل عبيد داود محاولاً الحفاظ على مُلْك بيت شاول.
- صحيح ما تقول.
- ثم ماذا؟ هل من تفسير يقبله العقل؟
- لقد غادر الرب بيت شاول إلى بيت داود وباركه. لابد من الخضوع لمشيئة الرب. من المستحيل أن نقف بإرادتنا ضد إرادة إله إسرائيل. إن عصينا ندمر تدميراً كاملاً .. نُباد عن آخرنا.

صاح الجميع فى صوت واحد: صدقت.

لم يخبرهم أبنير بالحقيقة .. أن إيشبوشت عندما وجده بين أحضان امرأة من نساء أبيه شاول ، غضب وعاتبه فانقلب أبنير عليه من أجل شفتى امرأة وثديين وفخذين. هكذا سقطت مملكة وقامت مملكة فى إسرائيل .. من بين أفخاذ النساء.

أقنع أبنير الشيوخ بحق داود فى الملك بمباركة سماوية. توجه معه عشرون منهم إلى "حبرون" حيث داود. أقيمت لهم وليمة كبيرة تليق بقائد جيوش شاول ومن معه من كبار الشيوخ. احتفى بهم داود .. أكرمهم وأحسن إليهم .. أخجلهم كرمه. باركوه وعاهدوه ونصبوه ملكاً.

وكى يكمل أبنير مهمته ويظهر عميق ولاءه قال لداود:

- أقوم الآن وأذهب. أجمع إلى سيدى الملك جميع إسرائيل فيقطعون معك عهداً وتملك حسب كل ما تشتهى نفسك.

سمح له داود بالانصراف كى يكمل ما بدأ فذهب بسلام.

***

كان بعض عبيد داود تحت قيادة يوآب قد خرجوا للغزو حين وصل أبنير. وصلوا إلى حبرون ومعهم غنائم كثيرة أثلجت قلب داود وجعلته يشعر أن الأيام القادمة هى أيام عظمة ملكه وسلطان سطوته.

لم يلتق أبنير ويوآب لأن أبنير كان قد انصرف قبل عودة يوآب وكان هذا من حسن حظ داود. لو التقى الرجلان فى وجوده لاختلت الموازين. كان ليوآب عند أبنير ثأر.

علم يوآب من رجال داود بحضور أبنير ومن معه من شيوخ. تملكت يوآب ثورة عارمة. اتجه فى الحال إلى داود وما أخفى غضبه صاح صارخاً فى وجه الملك:

- ماذا فعلت. هو ذا قد جاء أبنير إليك فأولمت له وأكرمته ثم تركته يرحل فى سلام. لماذا أرسلته فذهب؟

رد داود باقتضاب:

- تريد أن أحبسه؟

ازداد انفعال يوآب:

- أنت تعلم إنه كان من الواجب عليك أن نفعل ذلك.
- الرجل جاء بشيوخ إسرائيل لمبايعتى ملكاً .. هل أعاقبه على حسن فعله؟
- تعلم أنه قد أساء إلينا نحن بيت صُروية.

- ما نسيت إذن!!
- أنسى أنه قتل أخى؟ إنك تطالبنى بالمستحيل.

خرج يوآب من عند داود. أمر بعض رجاله بالإسراع فى أثر أبنير:

- لا تعودوا بدونه. إن لم تدركوه وتحضروه لا تعودوا.

انطلق الرجال فى أثر أبنير حتى لحقوا به. لم يستخدموا معه العنف ولم يأخذوه قهراً. تحدثوا إليه فى لطف. قال أحدهم وهو ينحنى أمامه:

- سيدى أبنير بن نير قائد جيش الملك ..
- ماذا تريد؟ ولماذا تسرعون هكذا فى إثرى؟
- خيراً يا سيدى. نحن رجال يوآب. لقد أحزنه أن يحضر ولا يحظى بلقائك فى حضرة الملك.
- أنا فى شوق إليه ويسعدنى أن أراه.
- لتعد فى صحبتنا سيدى. نحن عبيد لك.

خُدع أبنير بلطف الكلمات. سرَّه أن يطلب يوآب لقاءه. عاد.

استقبله يوآب. مد ذراعيه فى مودة ظاهرة وترحيب. مال به إلى بعيد عن الجمع ليكلمه سراً. كلام بين قائدين كبيرين يجب ألا يسمعه أحد. عندما أصبحا وحدهما مال عليه. اعتقد أبنير أنه سيعانقه .. لكن يوآب طعنه فجأة بالسيف فى بطنه. سقط أبنير ومات بدم عسائيل. وهكذا انتقم يوآب لمقتل أخيه. انتقم غدراً.

سمع داود بمقتل أبنير. تبرأ فى الحال وعلى الملأ من مقتله. دمه على رأس من قتله. قال داود للجموع:

- إنى برئ أنا ومملكتى لدى الرب إلى الأبد من دم أبنير بن نير.

انقلب داود فى الحال على يوآب الذى كان يقود جيشه فى حربه ضد بيت شاول .. اتهمه ودعى عليه:

- فليحل دم أبنير على رأس يوآب وعلى كل بيت أبيه ولا ينقطع من بيت يوآب ذو سيْل وأبرص وعاكز على العكازة وساقط بالسيف ومحتاج الخبز.

هكذا استجلب داود اللعنات على رأس يوآب وبيت يوآب .. ما عاد فى حاجة إليه وإلى أهل بيته وقد بدأت الأمور تهدأ والملك يستتب.

خرج إلى جميع الشعب وصاح:

- قتل يوآب وأبيشاى أخوه "أبنير" لأنه قتل عسائيل أخاهما. قُتل أبنير غدراً بدم عسائيل الذى قتله أبنير فى ميدان القتال دفاعاً عن النفس. يا شيوخ إسرائيل .. يا جموع الشعب .. مزقوا ثيابكم وتنطقوا بالمسوح والطموا أمام أبنير.

وكما فعل بعد مقتل شاول وكتب مرثية "تشيد القوس" يرثى فيها الملك الذى هو جالس الآن على عرشه ، خرج داود كى يمشى وراء نعش أبنير .. يودعه ويدفنه ويرثيه.

رفع الملك صوته وبكى على قبر أبنير. وبكى جميع الشعب. ورثا الملك أبنير. قال:

- هل كموت أحمق يموت أبنير. يداك لم تكونا مربوطتين ورجلاك لم توضعا فى سلاسل نحاس. كالسقوط أمام بنى الإثم سقطت.

هكذا صور داود يوآب وأهل بيته. أمام كل إسرائيل ، على أنهم بنى الإثم .. عليه أن يتخلص منهم ويشهد الشعب عليهم كى لا يكونوا فى مستقبل الأيام حجر عثرة فى طريق سلطانه. تمادى فى حزنه. وأعلن صومه:

- هكذا يفعل لى الله وهكذا يزيد إن كنت أذوق خبزاً أو شيئاً آخر قبل غروب الشمس.

انبهر الشعب بسلوك داود. تأكد الجميع أن الملك برئ ولا صلة له بما حدث من جُرْم. تمادى داود فى بكائه محاولاً كسب استعطاف الشعب وإثارتهم فى نفس الوقت ضد بيت يوآب بن صروية. قال وهو يجهش بالبكاء:

- أنا اليوم ضعيف وممسوح ملكاً وهؤلاء الرجال بنو صروية أقوى منى. يجازى الرب فاعل الشر كشرّه.

***

أصبح إيشبوشث وحيداً بعد مقتل أبنير وهروب رئيسا غزاته "بعنة" وأخوه "ركاب". لم يعد لإشبوشث من نصير. انهدت قواه وخارت عزيمته. انزوى فى بيته وقد فرض على نفسه العزلة. ولو لم يفرضها هو على نفسه لفرضت هى نفسها عليه. لا أحد يتبع الشموس الغاربة وقد غربت شمسه وما بقى له إلا الرحيل إلى وادى الظلال.

تلصص ركاب وبعنة ، الهاربين حول بيت إيشبوشث. دخلا البيت فى حر النهار كى يسرقا بعض الحنطة. وجداه نائماً نومة الظهيرة. كان مضطجعاً على سريره فى مُخْدع نومه. جذب ركاب أخاه بعيداً عن المخدع ، همس وهو يشير إلى إيشبوشث:

- الملك!!
- ما عاد ملكاً.
- لم يعلن ذلك بعد فى إسرائيل.
- زمام الأمور كلها الآن فى يد داود.
- هل استتب له الأمر؟
- نعم. لقد أصبح هو الملك بلا منازع.
- إذن ما قيمة هذا الراقد أمامنا الآن فى مخدعه؟
- لا قيمة له.
- نقتله!!
- نعم؟
- نقتله.
- لقد جئنا لأخذ بعض الحنطة لا للقتل. لماذا نلوث أيدينا بدمه؟
- نأخذ رأسه إلى داود. نقول: خلّصنا الملك من أعدى أعدائه. نصبح من أصحاب الحظوة عند الملك الجديد.
- تعتقد أن داود سيرضى عن فعلتنا ويكافئنا؟
- قد نصبح من أقرب المقربين إليه.
- متأكد أنت مما تقول؟

- تقتنى مُطلقة وبلا حدود.
- تضربه أنت؟
- وأنت؟
- عاجز أنا عن أن أقتل ملكاً.
- نضربه سوياً. هيا تقدم. لا تجبن. يدى بيدك.

تقدما سوياً. ضرباه. مات. قطعا رأسه. نسيا الحنطة التى جاءا أصلاً لسرقتها. تصورا أن الرأس المقطوعة التى حملها "بعنة" هى مفتاح كنزهما ومصدر حظوتهما عند داود الملك.

وصلا إلى "حبْرون". اتجها مباشرة إلى حيث يجلس داود وحوله كبار الشيوخ. تقدم بعنة وهو يحمل رأس إيشبوشث ، ملفوفة فى قطعة خيش ، وإلى جواره أخوه ركاب. قال بعنة:

- نحن عبيدك أيها الملك. وقد جئناك بنبأ عظيم.

سأل داود:

- من أنتما؟

أجاب بعنة:

- نحن رئيسا غزاة إيشبوشث بن شاول.
- كيف هو الآن؟ كيف تركتماه؟
- تركناه مُضرجاً فى دمه.
- قتل نفسه؟
- لا.
- إذن من قتله؟

- يا سيدى الملك .. أنا وأخى .. نحن قتلناه!!
- أنتما؟
- نعم.
- لماذا؟ هل أساء إليكما؟ هل لكما عنده ثأر؟
- لا.
- لماذا كان قتله إذن؟
- من أجلك أنت أيها الملك!!
- من أجلى أنا؟ ما صلتى أنا بجريمة قتل؟
- كى تكون أنت الوحيد ملكاً على كل إسرائيل. من أجلك نفعل أى شئ.. نقدم على أى شئ.. مهما كانت المخاطرة.

يرمى برأس إيشبوشث عند قدمى داود:

- هو ذا رأس إيشبوشث بن شاول عدوك الذى كان يطلب نفسك. وقد أعطى الرب لسيدى الملك انتقاماً فى هذا اليوم من شاول ومن نسله. نحن .. أنا وأخى .. خلصناك منه. فلينظر الملك فى أمر جائزتنا .. كيف سيكافئنا الملك؟
- تحصلان على نفس المكافأة التى حصل عليها من بشرنى بأن شاول قد مات وأنه هو قاتله.
- لن تقل جائزتنا بأية حال عن جائزته. كيف كافأه الملك؟
- أمرت بقتله!!

صاح الأخوان فى نفس واحد:

- مستحيل!!

أضاف ركاب:

- لقد قمنا بخدمة الملك.
- قمتما بخيانة سيدكما.
- الرحمة أيها الملك.
- عن أية رحمة تتكلم؟ هل رحمتما ابن شاول وأنتما تقطعان رأسه؟ رجلان باغيان أنتما. فالآن أما أطلب دمه من أيديكما وأنزعكما من الأرض؟

نادى داود على بعض غلمانه. أصدر أمره:

- اقتلوهما. قطعوا أيديهما وأرجلهما وعلقوهما على البركة في حبرون.

اقتادهما الغلمان وقد ربطوا أيديهما. قال بغنة لأخيه:

- هل كنت تتوقع هذه الجائزة؟!!
- الموقف لا يتحمل السخرية.
- أي مصير أسوء وأي موت مُزْرٍ مهين!
- سلوك ليس بمستغرب من داود بن يسى رُوَيْعى الغنم.

***

لم يعد هناك من يناوئ داود. جاء جميع أسباط إسرائيل إليه طائعين مختارين. تكلموا:

- هو ذا عظمك ولحمك نحن .. وقد قال لك الرب أنت ترعى شعبي إسرائيل وأنت تكون على الجميع رئيساً.

اجتمع الشيوخ فى حبرون. قطعوا مع داود عهداً أمام الرب. وهناك فى حبرون مسحوا داود ملكاً على كل إسرائيل. كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك أربعين سنة. فى حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر. وفى أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا.

كان لداود من النساء عشر زوجات غير السرارى. ومن البنين والبنات عدد كبير ، من أهمهم كان أمنون وهو البكر وأبشالوم وأدونياً وناثان وسليمان وثامار أخت أبشالوم الشقيقة والتى سيكون لها دور محورى خطير فى سير الأحداث.

أخذ داود حصناً يسمى حصن "صهيون" .. أقام فيه وأطلق عليه اسم "مدينة داود" .. وتزايد فى عظمته وقد أحس أن الرب معه وأنه قد أثبته ملكاً على إسرائيل. لهذا قرر أن ينقل "تابوت الله" الذى يدعى عليه بالاسم اسم رب الجنود الجالس على "الكروبيم" .. ينقله من "بعلة يهوذا" إلى مدينة داود. ولكى يحقق حلمه بنقل تابوت الرب إلى جواره، جمع داود جميع المنتخبين فى إسرائيل ثلاثين ألفاً. توجهوا إلى "بعلة يهوذا". أركبوا التابوت على عجلة جديدة وحملوه من بيت "أبيناداب" الكاهن. وكان أبنا أبيناداب "عُزَّة وأخِيوُ" هما اللذان يسوقان العجلة.

وترجع حكاية "تابوت الله" هذا أو ما يسمى أحياناً تابوت عهد الرب إلى أيام موسى عندما ناداه ربه فصعد الجبل ودخل وسط السحاب. وظل فى الجبل وحده أربعين نهاراً وأربعين ليلة. وخلال هذه

الفترة الزمنية. وفى أثناء هذه الخلوة الربانية. يتحدث الرب مع نبيه موسى ، يخبره بما يجب عليه أن يفعل وما يجب عليه ألا يفعل.

وكان من ضمن ما قاله الرب لموسى بوضوح كامل إنه ببساطة متناهية قرر أن يسكن وسط الشعب ، أى وسط بنى إسرائيل. وبناءً عليه فقد تم تكليف موسى بأن يصنع للرب مقدساً .. تابوتاً من خشب السنط، مغشى بذهب نقى.

يتلقى موسى من ربه أوصافاً مفصلة للتابوت: الطول ذراعان ونصف .. العرض ذراع ونصف .. الارتفاع ذراع ونصف .. يغشى من الداخل والخارج بذهب نقى .. ويصنع عليه إكليلاً من ذهب حواليه .. "وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع .. وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب. وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت بهما. تبقى العصوان فى حلقات التابوت لا تنزعان منه".

وعلى غطاء التابوت المغشّى بذهب نقى ، تتم صناعة كروبين من ذهب. والكروبان هما طائران لم ير الناس مثلهما. وينسب إلى موسى قوله إنه رأى هذا النوع من الطيور بالقرب من عرش الله. وحراسة التابوت موكولة لهذين الطائرين.

يطلب الرب من موسى أن يضع فى التابوت الشهادة التى سوف يعطيه (لوحى الشهادة). ويحيطه علماً أنه سوف يتكلم معه من على غطاء التابوت من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة. وهذا

معناه أن موسى لن يكون فى حاجة بعد ذلك إلى أن يصعد إلى الرب على قمة الجبل ذلك لأن الرب نفسه هو الذى سيهبط إليه.

وحكاية التابوت هذه ليست فكراً موسوياً أصيلاً بمعنى أن موسى لم يأت بجديد ، فالفكرة فى أصولها تنتمى إلى التراث المصرى القديم الذى درسه موسى وتربى عليه وتعلم منه. هذا معناه أن "تابوت العهد" لا يزيد عن كونه مجرد اقتباس من الفكر المصرى الذى كان به نظائر لهذا التابوت "المقدس". وقد ظل الاعتقاد فى قدسية هذا التابوت حتى عهد "إرميا" الذى أخذ يتكلم عن إله روحانىّ ووضع من شأن التابوت وقال عنه "لا يعودون يقولون تابوت عهد الرب ولا يخطر لهم ببال ولا يذكرونه ولا يفتقدونه ولا يصنع من بعد".

وبجانب أن التابوت قد تم صنعه كى يكون سكناً ل "يهوه" إله إسرائيل. فقد ضم الوصايا العشر التى أملاها "يهوه" على موسى وأمره أن يحفظها فى التابوت .. ووضعت فى التابوت أيضاً عصا هارون ، وهى غير عصا الله التى كان يحملها موسى ، لكنها كانت هى الأخرى عصا سحرية مفرخة ، أى تنبت فروعاً وورق شجر وتثمر لوزا.

تابوت العهد ، إذن ، هو تابوت يشبه النعش ، وضعت فيه الآثار المقدسة ل "الخروج". وربما كان هو العرش المحمول للإله "يهوه". وكان هذا الصندوق هو أهم مقدسات بنى إسرائيل. وقد وضع فيما بعد فى معبد سليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد. ومن المحتمل أنه ظل فى المعبد حتى دمره البابليون عام 586 ق.م. وكانت مشاهدته حراماً على غير الكهنة. بل إنهم ليحظرون حتى مجرد الاقتراب منهم فى أثناء

مزاولتهم أعمالهم وأهمها سدانة "الرب" .. والأجنبى الذى يقترب منه يقتل.

من يمس التابوت يموت .. ولا يهزم شعب إسرائيل وتابوت الله فى وسطه. وهذه خرافات لا يمكن إثبات صحتها ، بل إن إثبات العكس هو الصحيح.

ماذا فعل التابوت للشعب ، وماذا فعل بالبابليين عندما هاجموا الهيكل وحرقوه وحرقوا "تابوت الله" معه؟ لماذا لم يحرق الرب الجالس على غطاء التابوت البابليين بدلاً من أن يترك تابوته هو نفسه يحترق؟ وماذا فعل الرب "الجالس ما بين الكروبين" على غطاء التابوت بالبابليين عندما أخذوا الشعب أسرى وسبايا؟ من الواضح أنه لم يفعل شيئاً على وجه الإطلاق للدفاع عن شعبه أو عن تابوته. لذلك لم يكترث الكهنة ، عندما أعيد بناء الهيكل ، بصنع تابوت.

هكذا اختفى التابوت ولم يعد يذكر إلا كحكاية .. مجرد حكاية من حكايات كثيرة تضمنها "تأريخ" بنى إسرائيل.

يطلب "يهوه" من موسى ، أيضاً ، أن يقيم له "مسكناً". وهذا المسكن اليهوى الموسوى كان على شكل خيمة يسهل نقلها وتحريكها كلما رحل العبرانيون البدو من مكان إلى مكان. كانت تسمى "خيمة الاجتماع" أو "خيمة المعبد".

يعطى الرب تفاصيل دقيقة ، شديدة الدقة ، عن كيفية إقامة "المسكن" الذى سيوضع التابوت فى جزء منه يسمى "قدس الأقداس" ، حيث يستمع موسى لصوت الرب ويتحدث إليه كلما دعت الضرورة.

ولا يكتفى "يهوه" بكل ما أعطاه لموسى من تفصيلات ، فيظهر له صورة للمسكن بكامل هيئته ، ويطلب منه أن يصنع صورة طبق الأصل ، ليس فقط كما سمع ، لكن أيضاً كما رأى.

يطلب الرب أيضاً من موسى أن يصنع داخل الخيمة حجاباً يفصل بين "القدس وقدس الأقداس ، وتجعل الغطاء على تابوت الشهادة فى قدس الأقداس" (خروج 26: 24)

ولم تكن خيمة الاجتماع بنفس أهمية تابوت العهد، ولم تستمر لمدة طويلة كما حدث فى حالة التابوت. وكانت مجرد خيمة يمكن نقلها من مكان إلى مكان وفقاً لتحركات بنى إسرائيل.. البدو الهائمين على وجوههم فى البرية.

لقد وفرت هذه الخيمة مكاناً لعبادة "يهوه" وتقديم القرابين له. وبعد دخول بنى إسرائيل أرض كنعان لم يرد لتلك الخيمة ذكر سوى مرة واحدة، بعدها ابتلعها النسيان.

يأمر الرب موسى أن يقيم المذبح – أيضاً – كى تقدم عليه المحرقات ، ويقدم له وصفاً تفصيلياً بأبعاده وأدواته والمواد التى يصنع منها ، ثم يطلب منه أن يُعين هارون وبنيه معه من بين بنى إسرائيل كى يكهنوا له. بذلك تبدأ الكهانة رسمياً بأمر الرب.

***

عودة إلى داود والمنتخبين فى إسرائيل ثلاثين ألفاً الذين قرروا أن يصعدوا تابوت الرب .. أركبوا التابوت على عجلة جديدة وتوجه الجميع إلى مدينة داود.

وأمام تابوت الرب كان داود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو .. بالعيدان وبالرباب وبالدفوف وبالصنوج.

لكن الفرحة امتزجت بالحزن والبكاء لأن "عُزَّة" مَدَّ يده وأمسك تابوت الله، فحمى غضب الله على عزة فضربه هناك فمات. من يلمس التابوت يموت!!

خاف داود من الرب فى ذلك اليوم ، وقال كيف يأتى إلىَّ تابوت الرب والرب فى حُمو غضبه. توقف وتوقفت الجموع. أشار داود إلى التابوت. **قال لشيوخ إسرائيل:**

- الرب ضرب عُزَّة فمات. الرب كما ترون فى حمو غضبه.
- أخطأ عُزَّة عندما لمس التابوت.
- الثيران انشمحت فأمسك بالتابوت رغماً عنه.
- كل كهنة إسرائيل يعلمون ويُعلِّمون أن لمس التابوت محرَّم. من يلمس التابوت يموت.
- لو فعل ذلك عن قصد لكانت معصية يستحق عليها الموت.
- هذا قضاء رب الجنود وليس من حقنا أن نناقشه.

قال داود:

- من الأفضل أن نرجئ دخول التابوت إلى المدينة حتى يهدأ الغضب.
- نحن بالقرب من بيت "عوبيد أدوم" يمكننا أن نتركه به فترة.
- أخشى أن يحل غضب الرب على البيت وأهله.

- من يدرى ربما تحل عليه البركة.

وبقى تابوت الرب فى بيت عوبيد أدوم ثلاثة أشهر. وحدث ما توقعه ذلك الذى تحدث إلى الملك: بارك الرب عوبيد أدوم وكل أهل بيته. عندها ذهب داود وهو واثق القلب وأصعد التابوت من بيت عوبيد إلى مدينة داود.

***

حَلَّ فرح كبير بالمدينة. وكان كلما خطا حاملوا التابوت ست خطوات يذبح داود ثوراً وعجلاً معلوفاً.

تملكت داود النشوة واحتواه فرح عظيم ما عرفه أبداً فى حياته من قبل. كان يرقص فى قوة وعنفوان أمام الرب وهو متمنطق بأفود من كتان. علا صوت الهتاف وفوق صوت الهتاف كان صوت البوق. وداود فى نشوته يرقص. نسى كونه ملكاً. رأى فى نفسه مجرد عبد بين العبيد يتضاءل ويتصاغر أمام تابوت رب الجنود.

أشرفت ميكال بنت شاول من شرفة بيتها عند دخول تابوت الرب إلى المدينة. رأت زوجها الملك يطفر ويرقص أمام التابوت فاحتقرته فى قلبها. ما خطر بخيالها يوماً أن ترى زوجها الملك يطفر ويرقص ويهتز فى الطرقات كما العبيد. كانت ابنة ملك وزوجة ملك ، والملك فى رأيها لابد وأن تكون له هيبته ومكانته .. محال أن يرقص الملك وسط العبيد!!

نصب داود خيمة لتابوت الرب .. أدخلوه .. أوقفوه فى وسطها .. ذُبحت ذبائح السلامة وأصعدت أمام الرب محرقات. بارك داود الشعب باسم الرب وقسم على الجميع .. على كل جمهور إسرائيل ..

رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب. بعدها ذهب كل واحد إلى بيته ، ورجع داود ليبارك بيته.

خرجت زوجته ميكال لاستقباله. قالت فى لهجة تنم عن السخرية والازدراء:

- ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم حيث تكشف فى أعين إماء عبيده كما يتكشف السفهاء.
- ما هكذا يخاطب الملك!!
- أى ملك يا داود؟ أيفعل الملك ، أى ملك ، ما كنت تفعله اليوم وأنت بين العبيد؟
- ماذا فعلت كى آلام عليه؟
- كنت ترقص بين العبيد وكأنك واحد منهم .. لا أحد يدرى: أين الملك وأين العبد.
- أنا لعبت أمام الرب. هل فى هذا ما يشين؟ لعبت أمام الرب الذى اختارنى ملكاً دون أبيك. وإنى أتصاغر دون ذلك وأكون وضيعاً فى عينى نفسى أما عند الإماء التى ذكرت فأتمجد. تفهمين؟

ولم تفهم ميكال انصرفت من أمامه غاضبة. ويبدو أن قد أصابها من غضب رب الجنود نصيب ، إذ لم يكن لها ولد حتى يوم موتها.

***

استتب الأمر لداود. ثبت ملكه. لم يعد هناك من يناوئه. بدت الأمور هادئة مستقرة فى مملكة إسرائيل. وكان شعب إسرائيل بأسره يلهج

لسانه بالثناء على داود. وكان على "داود بدوره أن يتوجه بكل قلبه إلى رب الجنود الذى يسرّ له كل هذا. ويشكره على ما أفاض عليه من نعم.

تحدث داود إلى "ناثان" النبى فى أمر إقامة بيت للرب شكراً على كرم عطائه وتفضله على داود وعلى كل شعب إسرائيل.

قال داود لناثان:

- انظر إنى ساكن فى بيت من أرز. وتابوت الله ساكن فى الشقق. أليس من الأجدر بنا أن نقيم لله بيتا يتقدس بوجود الرب ولا يكون كمثله بيت بين البيوت؟

قال ناثان:

- أفعل كل ما بقلبك لأن الرب معك.

وتقول حكاية "العهد القديم" إن الرب تحدث فى تلك الليلة إلى ناثان النبى. **قال:**

- أذهب وقل لعبدى داود.
- ماذا أقول له يا رب الأرباب الذى تجلى لموسى وكلمه وجهاً لوجه .. والآن يرفعنى إلى منزلة ما حلمت بالوصول إليها وذلك بأن يسمعنى صوته. مُصْغ أنا لجلالك يا الله.

قال الرب:

- أذهب إلى عبدى داود وقل له هكذا قال الرب. أأنت تبنى لى بيتاً لسكناى. لأنى لم أسكن فى بيت منذ أصعدت بنى إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير فى خيمة وفى مسكن.
- هذا ما حدث صدقاً ...

- صمتا .. استمع ولا تنطق.
- .. .. ..
- فى كل ما سرْتُ مع جميع بنى إسرائيل، هل تكلمت بكلمة واحدة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا شعبى إسرائيل قائلاً لماذا لم تبنوا لى بيتاً من الأرز؟ والآن فهكذا تقول لعبدى داود: هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيساً على شعبى إسرائيل. وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسماً عظيماً كاسم العظماء الذين فى الأرض ، وعينت مكاناً لشعبى إسرائيل وغرسته فسكن فى مكانه .. وقد أرحتك من كل أعدائك. والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتاً. متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكته. هو يبنى بيتاً لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد.

قص ناثان رؤياه على داود. قال بعد أن انتهى من قص الرؤيا:

- إله إسرائيل راض عنك وعن أهل بيتك أيها الملك.
- أنا عبده الخاضع دوماً لسطان جبروته. وجودى كله ترنيمة طاعة لعزته وصلاة تمجيد لمجده. منسحق أنا أمام جلال قدرته.

- عليك أن تدخل الآن إلى محرابك وتصلى صلاة شكر لكثير أفضاله ونعمته.

وفى خلوته صلى داود فى خشوع منسحق أمام جلال خالقه. قال فى صلاته ضمن ما قال:

- عظمت وتعاليت أيها الرب الإله لأنه ليس مثلك وليس إله غيرك .. أنت أيها الرب ثَبتَّ لنفسك شعبك إسرائيل .. شعباً لنفسك إلى الأبد .. وأنت يارب صرت لهم إلهاً. والآن أيها الرب الإله أقم إلى الأبد الكلام الذى تكلمت به عن عبدك وعن بيته وأفعل كما نطقت. وليتعظم اسمك إلى الأبد فيقال رب الجنود إله على إسرائيل .. فالآن ارتض وبارك بيت عبدك ليكون إلى الأبد أمامك لأنك أنت يا سيدى الرب قد تكلمت فليبارك بيت عبدك ببركتك إلى الأبد (صموئيل الثانى 7: 28-29)

***

بعد أن استقر الأمر لداود وثبتت دعائم ملكه ، أخذ ينظر إلى الممالك حوله. انتفضت رغبة القتال فى داخله. إنه الملك المحارب ولابد أن يظل هكذا تحت راية رب الجنود إله إسرائيل الذى لا يهدأ أبداً إلا إذا سمع صليل السيوف. ولا يستريح إلا إذا سالت أمامه أنهار الدم. ولا ينتشى إلا إذا احترقت أمامه مدن وقرى بكل ما فيها ومن فيها لا ينجو من لهب الحريق حجر أو بشر.

بدأ داود غزواته. كان أولها ضد الفلسطينيين!! نسى أنه لجأ إليهم أيام فراره من شاول .. لجأ إليهم عبداً هو وستمائة من أتباعه فلم

يرفضوه ، بل استقبلوه وأحسنوا إليه وأطعموه بعد أن أعلن عن عبوديته الكاملة وولائه المطلق لهم ، لدرجة أن تحمس للقتال في صفوف الفلسطينيين ضد شاول وقومه من بني إسرائيل. هذا كله حدث أيام كان داود عبداً لدى الفلسطينيين.

أما الآن فقد تغير كل شئ . ما عاد داود عبداً. أصبح داود ملكاً. وقفز العداء الكامن في أعماقه ضد الفلسطينيين. ربما تذكر أيضاً أيام عبوديته لهم .. تلك العبودية التي سعى إليها بإرادته لأنه لم يكن من ملجأ آخر .. فأراد أن يمحوها .. بالدم والنار.

ضرب داود الفلسطينيين بكل قوة إسرائيل. حاول هزيمتهم هزيمة كاملة تمحو وجودهم محواً شاملاً .. لكنه لم يستطع. انتصر بعنصر المفاجأة إذ لم يدر بخلد الفلسطينيين أن يجرؤ من كان يوماً عبداً لهم على قتالهم. اعتقدوا أنه يقابل الكرم بالكرم والوفاء بالوفاء والعطاء بالعطاء .. لكنه قابل الكرم باللؤم والوفاء بالغدر والعطاء بسفك الدماء.

وعندما تيقن داود أن النصر على الفلسطينيين نصراً نهائياً يعتبر ضرباً من ضروب المستحيل، تحول عنهم إلى ملك "صوبة" عند نهر الفرات. ضربهُ داود بدموية مرعبة وأخذ منه "ألفا وسبع مائة فارس وعشرين ألف رجل. ولما جاءت نجدة من "أرام دمشق" لنجدة ملك صوبة، ضرب معهم داود أثنين وعشرين ألفاً. وصار الأراميون عبيداً لداود يقدمون له الهدايا.

لم يكتف داود بذلك ، بل عبر الأردن لقتال "ارام" الذين اصطفوا لقتاله عندما علموا بمقدمه. لكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام جيش داود

المسمى بجيش الجبابرة. فروا من أمامه. وقتل منهم داود أربعين ألف فارس دفعة واحدة.

بعدها جمع داود كل الشعب وتوجه إلى "ربَّة عمون" ، اقتحمها وأخذها. وأخذ تاج ملكهم عن رأسه. وكان على رأس داود. وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً. وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرهم فى أتون الآجر. وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون. ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم (صموئيل الثانى 12: 31)

بهذا السلوك الدموى المرعب ما أصبح داود ملكاً ، بل غدا قاتلاً سفاحاً لا يرعى حرمة بشر. ولقد توارث أجيال بنى إسرائيل وكل من أتى بعدهم من يهود كل هذا الشر الدموى.

***

أرسل داود يوآب على رأس جيش الجبارة كى يغزو ويدمر ما تبقى من بنى عمون ويستولى على كل ما يمكن الاستيلاء عليه. أما هو فقد أقام فى أورشليم واستراح على سرير ملكه. كان يحب الاستمتاع بالحياة ويعشق أجساد النساء... تزوج عشر نساء وأضاف إليهن عدداً لا حصر له من السرارى... وكلما وجد جميلة من الجميلات ضمها إليهن ... لا أحد يعترض فالنساء كثيرات والراغبات فائقات العدد كما هن فائقات الجمال .. كل منهن تتمنى الوصول إلى سرير الملك.

وقت المساء فى ليلة مقمرة معطرة النسمات ، قام داود عن سرير ملكه وأخذ يتمشى على سطح بيته. تأمل البيوت المحيطة ببيت الملك ، فإذا بنافذة مفتوحة فى أحد أكبر تلك البيوت. نفذ داود ببصره

من خلال النافذة يتلصص ، فإذا بالداخل امرأة عريانة تستحم. كانت المرأة – كما تصفها حكاية العهد القديم – جميلة المنظر جداً. سلب جمالها لب داود. كل هذا الجمال بالقرب منه وهو لا يدرى!! كيف وهو الملك الذى يجب ألا تخفى عنه خافية.

هبط داود من فوق سطح بيته. طلب بعض عبيده المقربين. سأل:

- من تلك الساكنة فى ذلك البيت؟

حدد لهم موقع البيت الذى رأى فيه المرأة العريانة التى أثارت أحاسيسه وأهاجت رغباته الجنسية.

قال أحدهم:

- هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثى .. أحد الأبطال المعدودين سبعة وثلاثين فى جيش الجبابرة.

كان أوريا قد خرج مع يوآب لمقاتلة أعداء إسرائيل وأعداء الملك. الكارثة الأخلاقية أو اللاأخلاقية هى أن داود كان يعرف ذلك .. يعرف أن أوريا من أشجع وأخلص القادة الأبطال ، ومع ذلك لم يتورع عن خيانته والزنى بزوجته.

سأل داود:

- من منكم يستطيع أن يأتينى بها؟

التقت عيون الرجال. تجرأ أحدهم. **قال:**

- يأتى بمن يا سيدى؟

- بزوجة أوريا الحثى.

- كيف نقتحم البيت ونحضر الزوجة وزوجها يقاتل فى سبيل شعب إسرائيل؟
- لو أعدت السؤال مرة أخرى يقطع لسانك أولاً وبعدها موتا تموت.

صمت العبد وسجد أمام الملك الذى كان لابد وأن تتحقق رغبته فى أن يزنى بزوجة القائد الغائب .. الذى ربما لو كان حاضراً لدافع عن بيته وشرفه حتى ولو رفع سيفه فى وجه الملك. كان أوريا من الأبطال المشهود لهم بالجرأة والشجاعة والاقتحام.

توجه الرجال إلى بيت أوريا. طرقوا الباب فى خجل. كانوا يشعرون أنهم يقومون بمهمة غير مقدسة. الملك مقدم على تدنيس بيت أحد رعاياه.

أطلت المرأة بوجهها المشرق من شرفة بيتها. سألت:

- من تكونون؟
- نحن رجال الملك.
- ماذا تبغون؟
- نحن لا نبغى شيئاً.
- إذن لماذا تطرقون باب رجل غائب؟
- أوامر الملك.
- ماذا يريد الملك؟
- يريد أن يراك. ربما لحظات .. بعدها تعودين.
- هل حدث لزوجى مكروه .. هل أصيب فى ميدان القتال؟

- الملك وحده هو الذى يستطيع أن يجيب.

خرجت المرأة معهم وقد تملكها القلق. وصلوا إلى بيت الملك. كان داود على سريره ينتظر. أشار إلى عبيده. انصرفوا فى الحال. نظرت المرأة إلى داود فى وجل. إنها أمام مسيح الله. المسيح الذى اختاره الرب كى يكون ملكاً على جميع إسرائيل. سجدت!!

قام داود من فوق سريره. أمسك بذراعيها فى حنو بالغ لا صلة له بجبروت الملك. أوقفها أمامه. تأمل جمالها الأخاذ. ضمها إلى صدره. قالت المرأة بصوت خفيض وهى تحاول الابتعاد عنه:

- سيدى الملك !!

قال داود وهو يضغط بصدره على ثدييها:

- لا سيد اليوم ولا ملك.
- إن لم تكن أنت السيد يا مولاى وأنت الملك .. فماذا تكون؟
- أنا اللحظة رجل عاشق.
- عندك من النساء عشرات .. فما حاجتك إلىَّ؟
- أنت لست كبقية النساء. أنت نسيج وحدك. امرأة تجمع حُسْن كل نساء الدنيا. جمالك سحر .. فى شفتيك تعويذة .. فى عينيك عوالم ما جاب أنحاءها أحد .. جسدك هذا وهو عريان يخلب الألباب .. لحظة رأيته تاه عقلى.

تقاطعه وهى غير مقتنعة بما يقول:

- رأيت جسدى عرياناً أيها الملك؟!!
- نعم.

- مستحيل.
- لماذا؟
- ما تعريت أمامك يوماً. أنا لا أتعرى أمام أحد.
- ولا حتى أمام زوجك؟
- زوجى يا سيدى فى ميدان القتال.
- أعرف.
- مادمت تعرف لماذا أمرت بإحضارى إلى هنا؟ هل أصابه مكروه .. هل قُتل؟
- لا هذه لا تلك.
- ماذا إذن؟
- أحضرتك لأنى رأيتك وأنت تستحمين فأطار جمالك صوابى.
- الملك يتلصص على بيوت عبيده وخلسة يتأمل النساء وهن عاريات؟ لا أكاد أصدق.

يستعيد داود شيئاً من وقاره. يطلقها من بين ذراعيه. يقول وقد تجهم وجهه:

- ألا يسعدك أن أطلبك كى تنامى فى فراشى؟ امرأة غيرك قد ترقص طرباً لو طلبها الملك.
- يا سيدى أنا زوجة أحد أبطالك المعدودين فى جيش الجبابرة. كيف أخونه أنا وكيف تسمح أنت لنفسك باقتحام حرمة بيته؟

يبدو على وجه داود شئ من الغضب لكنه يسيطر عليه ويكبحه. **يقول فى صوت مبحوح:**

- فى حالات العشق الداهم كهذا العشق يلغى العقل ويتوقف التفكير. والآن ..

يقترب منها من جديد. يمسك بذراعيها فى قوة. تصدر عن المرأة آهة صغيرة:

- والآن .. ماذا يا مولاى؟
- أنت الليلة لى.
- أنت رجل متزوج وأنا امراة متزوجة.
- وماذا فى ذلك؟
- هل نسيت تعاليم الرب يا ملك إسرائيل؟
- أية تعاليم؟
- ما جاء فى "سفر التثنية": "إذا وُجد رجل مضطجع مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة فتنزع الشر عن إسرائيل" (تثنية 22: 22). إن ما تريد فعله يعتبر دعارة أيها الملك.
- دعارة مقدسة يا بثشبع. ألست أنا مسيح الرب؟
- نعم يا سيدى أنت مسيحه .. مسحك ملكاً على شعبه.
- ومسيح الرب يأمرك. لو كان هناك وزر أنا أتحمل وزرى ووزرك.

يقودها إلى الفراش. تعجز المرأة عن المقاومة. يطفى داود النور المنبعث من مصباح فى زكن الغرفة.

***

حملت امرأة أوريا الحثى من داود الملك. أرسلت إليه وقالت إنى حُبْلى. فكر داود فيما يجب فعله كى لا يفتضح أمر المرأة ويكتشف زناها فتطبق عليها شريعة موسى وتقتل ، وقد يحاول الكهنة البحث عن الرجل الذى زنى بها وتسوء الأمور.

هداه تفكيره إلى حيلة خُيِّل إليه أن قد تنجح. أرسل إلى يوآب قائد جيوشه: أرسل إلى أوريا الحثى. نفذ يوآب الأمر. أتى أوريا ووقف أمام داود. لم يكن يعلم ما يدور بخلد الملك. سأله داود وهو يحاول إخفاء ما يعتمل فى داخله:

- كيف حال يوآب؟
- إنه بخير سيدى الملك.
- والمعارك.. كيف تسير؟
- إننا دوماً ننتصر.
- علمت أن المقاومة فى بعض الأماكن شديدة والقتال عنيف.
- ننفذ تعليماتك دوماً.. يا ملك إسرائيل. السيف والحرق والمناشير. النار تلتهم كل شئ والسيف لا يبقى على أحد. لقد علمتنا فوعينا الدرس.. تعلمنا.
- أنت من صفوة الأبطال يا أوريا. لهذا أرسلنا إليك كى نكافئك.
- على ماذا يا سيدى؟ أنا مجرد عبد من عبيدك.
- هذا الحديث لم يحن وقته بعد. أنت الآن مرهق. أذهب إلى بيتك واغسل رجليك .. اسعد بامرأتك .. واسترح .. حتى أرسل إليك.

شعر أوريا فى داخله بعدم الاطمئنان .. احتواه إحساس غامض بالقلق وعدم الثقة. لم يذهب إلى بيته. بدلاً من ذلك نام مع جميع عبيد سيده على عتبة بيت الملك.

كان داود قد أرسل وراء أوريا من يراقبه. علم عن يقين أن أوريا لم يذهب إلى بيته. هذا معناه أنه لم يقرب امرأته .. بل ولم يلقاها. توجس داود خيفة. لقد زنى بامرأة أحد قادته ، ثم كذب عليه عندما استدعاه مدعياً أنه يريد أن يكافئه على ولائه وبطولته.

زنى الملك وكذب ولم يفلح كذبه. لم يضطجع أوريا مع امرأته ومن المحتم أن يفتضح أمرها. هنا لجأ داود إلى أسلوبه الدموى. استدعى أوريا. سأله:

- أما جئت من السفر؟
- نعم سيدى الملك .. حسب أوامرك.
- فلماذا لم تنزل إلى بيتك وتسعد بأيام مع أمرأتك؟

كان رد أوريا مفحماً. قال:

- إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام وسيدى يوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء وأنا آتى إلى بيتى لآكل واشرب واضطجع مع امرأتى. وحياتك وحيوة نفسك لا أفعل هذا الأمر.

لم يجد داود ما يرد به على هذا الرد. قال وقد اتخذ قراره:

- إذن أقم هنا اليوم أيضاً وغداً أطلقك.

أقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده. دعاه داود. قدم له الطعام والشراب وأسكره. عند المساء خرج ليضطجع فى مضجعه مع عبيد سيده.

وتقول حكاية "العهد القديم": وفى الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب فى المكتوب يقول: اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. وكان فى محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة (مدينة ربة) وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثى أيضاً. فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب. وأوصى الرسول قائلاً عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال. أما علمتم أنهم يرمون من السور .. لم اذا دنوتم من السور. فقل قد مات عبدك أوريا الحثى أيضاً.

هكذا نفذ قائد الجيوش إرادة الملك وغدر بأحد القادة الكبار. كان يوآب يعرف داود جيداً وكلمات الرسالة كانت واضحة. الملك يريد التخلص من أوريا لحثى لسبب لا يعرفه يوآب. لكن كان عليه رغم ذلك أن يقوم بتنفيذ الأمر.

وصل رسول يوآب إلى أورشليم. دخل على داود. قال:

- يا سيدى الملك .. قد تجبر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب فرمى الرماة عبيدك من على

السور فمات البعض من عبيد الملك ومات عبدك أوريا الحثى أيضاً.

اطمئن داود فى داخله .. فرح. لقد أصبحت امرأة أوريا ملكاً خالصاً له بعد أن تخلص من زوجها خيانة أو غدراً .. ما عاد يهم .. ما فكر داود فى هذا الأمر. **قال لرسول يوآب:**

- هكذا تقول ليوآب. لا يسوء فى عينيك هذا الأمر لأن السيف يأكل هذا وذاك. شدَّد قتالك على المدينة وأخربها.

سمعت بَثْشَبَع بموت زوجها. ما حال بخيالها أن مؤامرة قد دبرت عن قصد لقتله. بكت وندبت ولطمت خديها وامتنعت عن الطعام والشراب. كان من الشائع بين قريناتها من النساء أنها تحب أوريا حباً يندر وجوده. ما خانته بروحها. لكنها أرغمت على تسليم جسدها .. والذى أرغمها على الخيانة الجسدية كان هو الملك .. ملك إسرائيل .. مسيح الرب.

علم داود ببكائها ونواحها وامتناعها عن الطعام والشراب – خشى ذبول جمالها. لقد ارتكب جريمة قتل كى يفوز بكل هذا الجمال ويستمتع به .. لن يدعه يذوى. أرسل إليها. جاءت إلى بيته وقد تغير حالها. هذه ليست بثشبع التى قضى بين ذراعيها ليلاً بطوله أنسته فيه كل عوالم عالمه. سألها وهو يحاول التظاهر بالحزن:

- لم كل هذا البكاء .. وهذا العويل؟
- إنه زوجى أيها الملك. وقد فوجئت بمقتله.
- إنها الحرب يا بثشبع. لابد من سقوط ضحايا.

- إنه الوحيد الذى سقط من بين المعدودين أبطالاً فى جيش الجبابرة.
- لا علم لنا الآن بأسماء كل من سقط. ثم لا تنسى أنه سقط وهو يدافع عن التابوت وعن شعب إسرائيل تحت راية الرب.
- أعرف هذا حق المعرفة أيها الملك.
- إذن عليك أن تفرحى. لقد عاش بطلاً ومات بطلاً وسيظل فى ذاكرة شعب إسرائيل بطلاً.

هدأت بتشبع قليلاً. ركزت عينيها عند موطئ قدميها. بعد لحظات أشارت إلى بطنها:

- وهذا الذى فى بطنى أيها الملك.
- تظنين أن أتخلى عنه. إنه زرعى وسأقوم برعايته.
- كيف؟
- تنضمين إلى نسائى. تصبحين لى امرأة.

وانضمت بتشبع إلى نساء داود. أصبحت له امرأة .. وولدت له ابنا. ويذكر لنا كتاب "العهد القديم" أن هذه المرأة التى زنى بها داود هى أم سليمان .. سليمان الملك!!

***

لم يبارك الرب ما فعله داود. لقد عصى داود التعاليم. وطبقاً للتعاليم كان يجب أن يقتل داود وأن تقتل المرأة أيضاً. لكن تعاليم الشريعة لم تطبق. اكتفى الرب بأن أعلن أن الشر سيكون فى بيت داود ذلك لأن الذى فعله الملك قد قبح فى عينيه.

أرسل الرب ناثان النبى إلى داود فجاء إليه وقال له:

- استمع إلى ما سأقصه عليك ثم اصدر حكم قضائك.
- تكلم يا رجل الله..
- كان رجلان فى مدينة واحدة واحد منهما غنى والآخر فقير وكان للغنى غنم وبقر كثيرة جداً. وأما الفقير فلم يكن له شئ إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعاً. تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام فى حضنه وكانت له كابنة. فأتى ضيف إلى الرجل الغنى فأبى أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذى جاء. بدلاً من ذلك أخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ للضيف.

حمى غضب داود عندما سمع كلمات ناثان قال:

- حَىٌّ هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق.

قال ناثان لداود:

- أنت هذا الرجل. هكذا قال الرب إله إسرائيل. أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول. وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك فى حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا. وإن كان هذا قليلاً كنت أزيد لك .. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه؟
- أى شر سيدى الكاهن؟
- ألا تعرف أى شر؟ قتلت أوريا الحثى. أخذت امرأته لتكون لك امرأة وإياه قتلت بسيف بنى عمون. وبسبب إثمك يقول الرب:

الآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة أوريا الحثى لتكون لك امرأة.

صاح داود:

- الرحمة والمغفرة. أنا عبد خطاء أرجو رحمتك وأخشى عذابك.

قال ناثان:

- هكذا قال الرب. ها أنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس. لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس.

قال داود لناثان:

- لقد أخطأت إلى الرب.
- الرب قد نقل عنك خطيتك. لا تموت. غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت.
- الابن المولود من بثشبع والذى هو فى بطنها الآن؟
- نعم.
- إرادة الرب تكون.

وضرب الرب الولد الذى ولدته امرأة أوريا. فى اليوم السابع من بعد ولادته مات. أثناء تلك الأيام السبع وقبل موت الولد، سأل داود الله من أجله. وصام صوماً وبات مضطجعا على الأرض. وقام شيوخ بيته

عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ ولم يأكل معهم خبزاً. ولما مات الولد في اليوم السابع خاف عبيد داود أن يخبروه. قال أحدهم:

- لما كان الولد حياً كلمناه فلم يسمع لصوتنا. فكيف نقول له قد مات الولد .. أى شر تتوقعون؟!!

رأى داود عبيده يتهامسون. فَطِن أن الولد قد مات. قال لهم:

- هل مات الولد؟

قالوا:

- مات!!

قام داود عن الأرض واغتسل وادهن وبدل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد ثم جاء إلى بيته وطلب فوضعوا له خبزاً فأكل.

سأله عبيده:

- ما هذا الأمر الذى فعلت؟ لما كان الولد حياً صمت وبكيت. ولما مات الولد قمت وأكلت.

أجاب داود:

- لماً كان الولد حياً صُمتُ وبكيتُ لأنى قلت من يعلم. ربما يرحمنى الرب ويحيا الولد. والآن قد مات فلماذا أصوم؟ هل أقدر أن أرده بعد؟ أنا ذاهب إليه أما هو فلا يرجع إلىَّ.

ذهب داود إلى بثشبع امرأته. حاول أن يخفف عنها وقع المصاب **قال:**

- لا تحزنى الرب أخذ ما أعطى.
- صدقت. لكنى كنت أتمنى أن يعيش.

- لن نعترض على قضاء الرب. لقد أغضبناه من قبل. حذار أن نغضبه من جديد.
- أنا لا اعترض. فمن أكون أنا حتى اعترض على قضاء إله إسرائيل. فقط .. كنت أتمنى.
- يعوضك الرب خيراً. تعالىْ.

جذبها إلى الفراش . اضطجع معها. حبلت من جديد. ولدت له ابنا فدعا اسمه سليمان. ويقال إن الرب أحب سليمان.

الفصل الخامس
ثورة أبشالوم ونهاية داود

الفصل الخامس
ثورة أبشالوم ونهاية داود

بخطيئة داود حلّت اللعنة على بيته. اقترف إثماً وكان لابد من العقاب. مات الطفل الذى ولدته بثشبع بعد سبعة أيام. لكن هذا ما كان بكاف لإرضاء إله إسرائيل وهو إله يتلذذ بتعذيب شعبه المختار ويفرح عندما تراق الدماء.

فوجئ داود بالضربة الأولى من ضربات الرب تحل ببيته من أهل بيته .. من داخله حلّ المصاب ومن أولاده وبأولاده كان العقاب.

أمنون ، احد أبناء داود. هام حباً بأخته غير الشقيقة ثامار، وهى الأخت الشقيقة لأبشالوم بن داود.

كيف الطريق إلى هذه الأخت التى شغف بها أمنون وهى عذراء؟ كيف ينالها ويكون أول من يفض بكارتها وهى ابنة الملك وشقيقة أبشالوم المشهود له بالقوة والجرأة والاندفاع؟

أُحْصِر أمنون وأصابه السُّقْم. عسُر فى عينيه أن يفعل شيئاً. كيف السبيل إلى تلك الجميلة ثامار التى خلبت لبّه وتوهت عقله وأوجعت قلبه فهام بها .. ثم من بعد الهيام بها هام على وجهه لا يعرف إلى أين.

ماذا يفعل هذا المنكسر القلب المعلول. والدواء الذى يشفى علته ويداوى سقمه غير مباح ومحظور؟ .. لحظ تدنى حالته وتدهور صحته صاحب له اسمه يوناداب بن شِمْعى أخو داود. ويصف "العهد القديم"

يوناداب هذا بأنه كان "رجلاً حكيماً جداً". لكنه فى الواقع كان رجلاً خسيساً لئيماً جداً.

سأل يوناداب أمنون:

- لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح؟ أما تخبرنى!!

قال أمنون:

- ما الفائدة من إخبارك وأنت فى هذا الخصوص عاجز مثلى لا تستطيع فعل شئ.
- إن كنت مريضاً نداويك.
- جسدى سليم لا علة به.
- إن كان بك مس من جان .. هذا أمر هين .. المملكة بها الكثير من الرجال – والنساء – أصحاب الجان.
- ولا هذه أيضاً. الأمر أخطر من ذلك بكثير.
- لا يوجد ما هو أخطر. صرح لى بما فى داخلك. ماذا بك؟
- إننى أحب. أعشق عشقاً يهلكنى. لا أكاد أنام.
- تضحكنى يا رجل. أهكذا يفعل العشق بالعشاق؟
- إنه العشق المستحيل يايوناداب.
- كيف؟
- إنها أختى ثامار.
- شقيقة أخيك أبشالوم؟
- نعم.

- إنك تركب الصعب وتنزلق نحو الخطر.
- مكبَّل أنا بجدائل شعرها .. عاجز أنا عن الحراك. لن يحل أسرى وينهى عجزى إلا التحام جسدى بجسدها إلى حد الارتواء .. هذا هو الدواء. دونه لا أمل ولا شفاء.
- مطلبك مخيف يا أمنون. وقد يراق من أجله أو بسببه دماء.
- ما قيمة دمى وأنا ميت بين الأحياء. أنالُها أولا .. بعدها يسفك دمى من يشاء فى أى وقت شاء.
- يائس أنت أيها التعس .. يائس إلى حد الموت.
- وإلى حد الجنون.
- أشفق عليك وأرثى لحالك.
- لست فى حاجة إلى شفقتك ولا أكترث برثائك. كيف السبيل إليها .. هذا هو السؤال.
- نعم. هذا هو السؤال.
- أليس فى جعبتك شئ؟
- أستطيع أن اقترح عليك حيلة قد تصيب وقد تخيب.
- إلىَّ بها أسرع.
- اضطجع على سريرك وتمارض. وإذا جاء أبوك ليراك فقل له: دع ثامار أختى تأتى إلىَّ وتطعمنى خبزاً وتعمل أمامى الطعام لأرى فآكل من يدها.
- تعتقد أن سوف يصدقنى الملك؟ هل من الممكن أن يستجيب؟

- أنه لا يدرى عن سرك شيئاً. أنت ولده وهى أختك. من المستحيل أن يدور بخلده أنك تشتهى أختك وتريدها لك امرأة.
- أبى داود نفسه قد زنى.
- تريد أن تقول إنه ليس بمستغرب أن يزنى الولد. هذا الابن من ذاك الأب. الطبيعة تورث قوانينها. لكن أبوك لم يزن بأخته .. زنى بامرأة أحد قادة جيشه.
- قدر خط على أمنون. لا مهرب .. لا فرار.
- إذن افعل ما أشرت به عليك.

***

اضطجع أمنون وتمارض. أخبر داود بمرض ولده. ذهب إليه ليراه. سأل:

- ماذا بك؟
- كما ترى يا أبتاه. جسدى عليل.
- ماذا يؤلمك.
- كل ما بداخلى يؤلمنى. الجسد سقيم والروح محزون ثقيل. نفسى حزينة يا سيدى .. حزينة حتى الموت.
- حفظك الله يا بنى. نحضر لك من يداوى أمراض الجسد. أما الروح فنترك أمرها للرب.
- دوائى عندك يا أبتاه.
- أى دواء ذلك الذى هو عندى؟ أفصح. ما كنت يوماً شحيحاً فى عطائى لك.
- ثامار .. أختى!!

- ما شأن ثامار بما أنت فيه؟
- أحسّ فى داخلى أنها لو جاءت إلى هنا وصنعت لى طعاماً وأكلت من يدها فإنى استعيد عافيتى فى الحال وأصبح أفضل.
- إحساس غريب. هل لها صلة بمرضك؟ هل لها عليك من سلطان؟
- لا يا سيدى الملك. إنه مجرد هاتف يزعق فى أعماقى ليل نهار: شفاؤك على يد ثامار!!
- لست فاهماً. لكن هذا أمر يسير.
- لن أنسى فضل سيدى الملك ما حييت. يكفى أن تأتى أختى ثامار وتضع أمامى كعكتين فأكل من يدها.

أرسل داود إلى ثامار إلى البيت قائلاً:

- أذهبى إلى بيت أخيك أمنون واعملى له طعاماً.

ذهبت ثامار إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع. أخذت العجين وعجنت وعملت كعكاً أمامه وخبزت الكعك وأخذت المقلاة وسكبت أمامه. **قالت:**

- الطعام الذى طلبته يا أخى. ليكن لك فيه شفاء.
- ليست بى رغبة إلى الطعام الآن.
- لقد أتيت من بيتى كى أصنع لك ما تحب وأطعمك حسب رغبتك. والآن تقول لا رغبة لى فى طعام.
- أخرجوا كل إنسان عنى.
- لِمَ يا أخى؟

- فى حالة وجودى أنا وأنت وحدنا قد استرد شهيتى فأتناول من يدك وآكل.
- كما تحب يا أخى. ليخرج الجميع ويخلى المكان.

خرج الجميع عن أمنون. لم يعد فى المكان سواه وثامار. قال بصوت مشوب بالرغبة:

- ثامار !!
- نعم يا أخى؟
- ضعى يدك حول وسطى.خذينى إلى مخدعى. ايتى بالطعام إلى هناك فأكل من يدك.
- حبا .. أفعل ما تريد.

وقف. استند إلى كتفها وقد طوقت وسطه بذراعها كى تعينه وقد صدقت أنه مريض جداً. قال بصوت معلول:

- أحقاً تحبيننى يا ثامار؟
- كيف لا أحبك وأنت أخى؟
- وأنا أحبك حباً ما أحبه أبداً رجل لامرأة. أحبك أكثر من كل نساء الدنيا.

يميل على وجهها. يقبل شفتيها.

- ليس هكذا يا أخى. ليس هذا هو الحب الذى أقصده.

ذهبت به إلى مخدعه. قال لها وقد جلس على فراشه:

- أيتى بالطعام إلى هنا.

أحضرت ثامار الطعام. قدمت له ليأكل. أمسك بها. جذبها إليه بقوة. صاحت:

- ما هذا الذى تفعله يا أخى؟!! أنسيت أننى أختك؟

قال وقد سال اللعاب من شدقيه:

- تعالى اضطجعى معى يا أ ختى.

حاولت أن تتخلص منه .. أن تبتعد عنه .. طوقها بذراعيه .. ضمها إلى صدره .. مال بها إلى الفراش. صاحت فى فزع.

- يا أخى لا تذلنى.

- هذا حب .. لا إذلال.

صرخت:

- إنه لا يفعل هكذا فى إسرائيل!!

نزع عنها ثيابها. مزقها. حاولت أن تتملص. لم تستطع. أحست بالقهر . توسلت.

- لا تعمل هذه القباحة.

- ليست قباحة.

- ماذا تسميها إذن؟

- حب. حب مجنون يفوق كل طاقات البشر. لابد وأن أحصل عليك الآن.

- و أنا؟ أين أذهب بعارى؟

- لن تذهبى. لن تغادرى هذا المكان.

- هذا سلوك السفهاء. يا أخى لا تكن كواحد من السفهاء فى إسرائيل. "والآن كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك " (صموئيل الثانى 13: 13)

قال لها وهو يلهث وقد تملكه نوع غريب من السعار:

- لن استمع لصوتك. لن أطلقك. لن أكلّم الملك.

تمكن منها بقوة وعنف. قهرها. اضطجع معها . ارتخى جسده بعد أن نال منها ما أراد. فجأة شعر بغثيان شديد أحس بأن أمعاءه تتمزق. تقيأ. اشتد عليه الألم. ارتمى على الأرض. تمرغ فى قيئه. بال على نفسه. امتلأ المكان برائحة النتن والعفن. انطلقت منه تأوهات ألم ثم صيحات غضب. سال لعابه من فمه على لحيته ثم على صدره. بدا كحيوان قبيح قذر.

نظر إلى ثامار وكأنه يراها لأول مرة. شعر نحوها ببغض شديد جداً.. أشد من المحبة التى أحبها إياها. **صرخ فى وجهها:**

- لم أنت هنا؟

أجابت وهى تلطم وجهها:

- ألا تعرف لم أنا هنا؟ أليس لك عينان للنظر فتنظر. هذا الدم الذى سال من بين فخذى!!
- أى دم؟
- دم بكوريتى. الست أنت الذى أسلته؟ أذللتنى!!

رد عليها بوحشية وكأنه قد فقد آدميته:

- قومى. اخرجى من هنا.

- أين أذهب بعارى؟
- إلى الكلاب .. إلى أى مكان .. لا أريد أن أرى وجهك القبيح.
- أصبح الآن وجهى قبيحاً؟!!
- أكرهك. اخرجى. لا أريد أن أراك.
- هذا الشر بطردك إياى هو أسوأ من الآخر الذى عملته بى. فكر قليلاً.

لم يستمع لصوتها. نادى غلامه الذى كان يخدمه. وقف الغلام مندهشاً من غرابة المنظر. لم ينطق. انتظر أمر سيده. قال له أمنون:

- اطرد هذه عنى خارجاً وأقفل الباب وراءها.

فغر الغلام فاها. لم يتحرك. **صرخ فيه أمنون:**

- لماذا تقف هكذا مسمَّراً كالصنم تحرك. رد الغلام وقد تملكه الفزع:
- أنا لا أستطيع يا سيدى. عاجز أنا عن فعل ما تأمر به.
- أيها التعس .. أنسيت أنك عبدى؟
- ما نسيت يا سيدى.
- ماذا دهاك إذن؟
- إنها أختك. كيف أجرؤ على طرد ابنة الملك؟!!
- أطردها وإلا قتلتك. أنا مسئول عن هذا الفعل.

نظر الغلام إلى ثامار فى وجل. همهم:

- معذرة سيدتى. ما أنا إلا عبد.

قادها إلى خارج. همس:

- خطيته على رأسه.

وأقفل الباب وراءها.

كانت ثامار تلبس ثوباً ملوناً لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن جبات مثل هذه. كان الثوب ممزقاً فى بعض جوانبه. مزقه أمنون وهو يغتصبها.

صرخت ثامار. ندبت. زادت من تمزيق ثوبها. جعلت الرماد على رأسها. استولى عليها ذهول كاد أن يضل بها إلى حد الخبل.

وصل الخبر إلى أخيها أبشالوم. اسرع إليها وهى هائمة على وجهها لا تعرف إلى أين تتجه. أخذها إلى بيته. سألها وهو يتظاهر بالهدوء متمالكاً ثورة غضبه:

- من فعل بك هذا؟
- أمنون.
- أخوك.
- نعم.
- ضاجعك.
- غصباً. اغتصبنى. لم يكترث بدموعى وأنا أتوسل إليه .. استرحمه.

كان أبشالوم شديد البأس .. سريع اتخاذ القرار. قال لها فى هدوء ظاهرى وقد بيَّت فى نفسه أمراً:

- الآن يا أختى اسكتى. أخوك هو. لا تضعى قلبك على هذا الأمر. أقيمى هنا .. فى بيتى .. قريباً يأتيك من الأخبار ما يداوى جرحك ويعوضك .. وربما يسعدك.

وقامت ثامار مستوحشة فى بيت أبشالوم أخيها.

***

ظلت ثامار فى بيت ابشالوم لمدة عامين. سألته وفى عينيها انكسار:

- هل أظل فى بيتك إلى الأبد؟
- هل حدث ما يسيئك يا أخاه؟
- لا ورب إسرائيل. ما وجدت فى بيتك إلا الفضل والخير العميم.
- ماذا يقلقك والكل فى خدمتك وكأنك أنت المتوجة ملكة على إسرائيل؟
- تسخر منى يا أخى؟ نسيت مذلتى وقهرى؟
- أقسم لك بحد سيفى أنى أبداً ما نسيت. انتظرى قليلاً.
- إلى متى؟
- بعد ايام نولم وليمة كبيرة نذبح فيها كبشا من أكبر الكباش.
- أنا لا أصلح لحضور وليمة. لا يهمنى ذبح الكباش. مازلت أعيش مصيبتى وأندب.

يقاطعها:

- عندما يراق دم ذلك الكبش عند قدميك ستولدين من جديد.
- تحدثنى بلغة لا أفهمها.
- غداً تفهمين.

إلى وليمته دعا ابشالوم جميع بنى الملك. ذهب إلى داود الملك نفسه. سجد أمامه فى خشوع ظاهر وخضوع. قال:

- يا مسيح الرب. لا تبخل علىَّ بالحضور أنت وكل عبيدك. ولتشرف علينا بدفء شمسك يا نور سماء إسرائيل.
- هذا لا يجوز يا بنى. لو ذهبنا جميعاً نثقل عليك.
- خادمك أنا يا سيدى الملك. عبد من ألوف عبيدك. أتمنى لحظة رضاك. يمتلئ بيتى بخير بركاتك إذا ما وطئتة قدماك. باركنى يا مسيح الرب وبارك بيتى .. فبدون بركتك نحن موات بلا حياة.
- مبارك أنت يا ابشالوم ومبارك اهل بيتك. والآن اذهب فى سلام.
- مادمت يا سيدى تصر على عدم تشريفى بحضورك أرسل معى أخى أمنون. دعه يذهب معنا.
- ولماذا أمنون بالذات؟
- هو الأعظم بين إخوته وليكن بيننا ببهاء طلعته ووقار منظره وجليل هيبته عوضا عن غياب الملك.
- ما دمت تُلح ليذهب معك أمنون ومعه إخوته.
- لقد دعوتهم جميعاً كى أنال رضاء الملك.
- ليسعدوا بوليمتك ولتسعد معهم.

يتوقف داود لحظات. بعدها يقول:

- نسيت أن اسألك سؤالاً.

- مولاى يأمر وأمر الملك مطاع.
- كيف حال ثامار؟
- غداً تراها فى أبهى زينة.

***

مع أبشالوم خرج أمنون وجميع بنى الملك. وكان ابشالوم قد أوصى غلمانه قائلاً:

- انظروا متى طاب قلب أمنون بالخمر وقلت لكم اضربوا أمنون .. اقتلوه.

ارتعد الغلمان. قال أحدهم:

- سيدى إنه أخوك. إنه ابن داود الملك. كيف تجرؤ.
- لا تخافوا.
- نقطع رؤوسنا وتعلق على الجدران حتى تتعفن.
- أليس أنى أنا أمرتكم؟
- من يحمينا من غضب الملك ونقمته؟
- أنا. أنا أصدرت الأمر. أنا أتحمل وزره. تشددوا وكونوا ذوى بأس.

أكل الجميع حتى شبعوا. شربوا ما لذ لهم من الخمر حتى ارتوَوْا. رقصت جميلات نساء إسرائيل وملن بصدورهن العارية على أجساد أبناء الملك .. كل منهن تبغى الحظوة.

كانت ثامار عن قرب تتابع ما يحدث ، مشدوهة بكرم السخاء وبرقص النساء وجميل الغناء. فجأة قام أمنون وقد لعبت الخمر برأسه. رقص بين النساء. مِلْن عليه فمال، ثار فى داخله الوحش الذى فتك

بثامار. أمسك إحدى النساء مزق ثيابها. طرحها أرضاً. ارتمى عليها كالبهيم.

صدرت إشارة أبشالوم للعبيد الذين كانوا يقفون عن بُعد ينتظرون. فى لحظة كاللمح هجموا على أمنون. سحبوه بعيداً عن جسد المرأة. مزقوا جسده بالسيوف.

فى ذعر هرب جميع أبناء الملك وقد أذهلهم هول ما حدث. أمر أبشالوم عبيده بالانصراف. نادى ثامار. أشار إلى جثة أمنون:

- الكبش. الذى وعدتك أن أذبحه. البهيم الذى أذلّكِ ها هو ذا عند قدميك .. مقتول.
- هل فكرت فيما قد يفعله الملك؟
- لا تكترثى بما قد يفعله الملك. إنه لم يعاقب ولده عندما اقتحمك اغتصاباً. لم يفعل شيئاً. ولو حاول أن يفعل الآن سيكون السيف على رقاب كل بيت داود. وسيفى أنا سيكون أول من يتصدى لسيفه.
- لا يا أخى. استحلفك بإله إسرائيل الذى اختارنا أصفياء كشعب مقدس مختار .. لا ترفع السيف فى وجه أبيك.
- ليس هناك خيار. لقد تم إذلالك من قبل ولن تُذلّى من جديد. أما أنا فلن أهان أو أُذلّ أمام أحد. لا داود ولا غير داود.
- أخى لا نريد إراقة مزيد من الدماء.

- لقد بدأنا. لن نستطيع أن نتوقف. الدم المراق سيسيل أنهاراً فى بيت داود حتى ينتهى الطوفان بإراقة دمى أو دمه .. دم أبشالوم أو دم داود.
- فعلت ذلك من أجلى أليس كذلك؟
- نعم.
- وأنا الآن أجثو أمامك على الأرض .. أقبل قدميك .. أستحلفك ابتعد بعض الوقت عن أورشليم. اعرف خطورة ما فعلته من أجلى. لا أريد أن أفقدك فأفقد كل ما تبقى لى. بدونك يكمل ضياعى. من اجلى ابتعد .. أريدك أن تعيش.
- أنا رجل سيف. لست جباناً ترعده الأحداث.
- أعرف. صدقنى. أعرف.
- ماذا تبغين إذن؟
- أن تبتعد. ابتعد حتى تهدأ الأمور وتتبين نوايا الملك. أنا معك لو شئت .. أو انتظر هنا .. أكون عيناً لك .. أرقب الأحداث.
- سأفعل ما تريدين كى يستريح قلبك وتهدأ مخاوفك. لكن لن ابتعد كثيراً ولن أغيب طويلاً.

قبلّت يديه وقبلّ جبهتها. انصرف. اختفى. قالوا: هرب أبشالوم.

***

وصل الخبر إلى داود قبل أن يصل إليه جميع بنيه باستثناء أمنون. قال له عبد من عبيده:

- قتل أبشالوم جميع بنى الملك. لم يتبق منهم أحد.

لم يصدق داود ما وصل أذنيه من كلمات. صاح فى حدة:

- ماذا تقول؟
- أقول ما سمعت يا مولاى.
- أولادى جميعاً.
- اعتقد ذلك يا مولاى.
- أولادى جميعاً بضربة واحدة فى ليلة واحدة. هذا محال. هل شهدت بعينيك؟
- لا. قصَّ علىَّ الخبر رجل كان هناك.
- أحضره. إن كنت كاذباً تموت. تصلب على جذع شجرة. تتعفن. يأكلك الدود.
- الرجل بالباب يا مولاى.
- أدخله.

يدخل عبد من عبيد داود وهو يرتعد. يسأله داود:

- كنت هناك؟
- نعم.
- شهدت مقتل جميع بنى الملك؟
- لا. شهدت مقتل أمنون. هربت فزعاً. كان أبشالوم فى لوثة غضب جامح. خيل إلىَّ إنه لن يبقى على أحد. لو انتظرت قليلاً لكنت الآن بين القتلى.

قام الملك ومزَّق ثيابه واضطجع على الأرض وجميع عبيده واقفون وثيابهم ممزقة. لكن يوناداب بن شمعى – وهو الذى نصح أمنون بالتمارض وطلب أخته ثامار كى تطعمه – قال لداود:

- لا يظن سيدى أنهم قتلوا جميع الفتيان بنى الملك.

سأل داود ودمعه ينهمر:

- ما الذى يدفعك إلى هذا الظن يا يوناداب؟
- أمنون وحده يا سيدى هو الذى أختير للموت لأن ذلك وضع عند أبشالوم منذ يوم أذل ثامار أخته. والآن لا يضعن سيدى الملك فى قلبه شيئاً قائلاً إن جميع بنى الملك قد ماتوا. إنما أمنون وحدة مات.

كان هناك غلام لداود يرقب الطريق. رفع طرفه ونظر وإذا بشعب كثير يسيرون على الطريق وراءه بجانب الجبل. أمعن النظر فإذا به يرى أبناء الملك وسط الجمع. أسرع يبشر بالخبر. قال يوناداب للملك:

- هو ذا بنوا الملك قد جاءوا. كما قال عبدك كذلك صار.

ولما فرغ من كلامه إذا ببنى الملك قد جاءوا ورفعوا أصواتهم وبكوا وكذلك بكى الملك وعبيده بكاءً عظيماً جداً.

ويقرر كتاب "العهد القديم" أن داود ناح على ابنه الأيام كلها. أما أبشالوم فقد هرب وذهب إلى "جشور". وكان داود يتوق إلى الخروج إلى إبشالوم لأنه تعزى عن أمنون حيث أنه مات.

***

لاحظ يوآب بن صروية ، قائد جيوش الملك ، أن قلب الملك على أبشالوم. إنه يحن إليه ويشتاق إلى رؤيته وكلما ذكر اسمه أمامه بزغ من عينيه حزن عميق. لقد مات أمنون بجرمه ويجب ألا يضيع

ابشالوم لأن دمه ثار فانتقم لشرف ثامار. الحى أبقى من الميت. قول يتناقله الناس ولا يغيب عن ذاكرة الملك.

صمّم يوآب أن يرد أبشالوم إلى أبيه. إن بُعْد الفتى يمزق قلب الملك .. والفتى مليح.. فارس مقدام وشجاع. لهذا قرر يوآب أمراً وقام بالتنفيذ فى الحال. أرسل أحد رجاله إلى امرأة اشتهرت برزانة العقل واتزان الفكر وتميز الحكمة. عندما وقفت بين يديه قال لها:

- أريدك فى أمر صعب يستحيل على غيرك القيام به.
- أنا طوع أمرك أيها القائد المظفر.
- تمثلين أمام داود.
- الملك!!
- نعم.
- أنت قائد جيوشه ولست فى حاجة إلى امرأة مثلى كى تحصل على ما تريد.
- أنا لست فى حاجة إلى شئ. ولا صلة لى بمهمتك أمام الملك.
- أوضح سيدى القائد كى تفهم أمتك.
- استمعى جيداً إلى قولى. ما آمرك بتنفيذه ينفذ وكل كلمة أجعلها فى فمك لا يسقط منها حرف واحد.
- لتطمئن نفسى أولاً. أهو خير ما تسعى إليه؟
- هو بالتأكيد خير.
- لك أم للملك؟
- لسيدى داود. أنا عبد من عبيد الملك.

- أنا طوع أمرك سيدى.

قال يوآب:

- أريد أن يشيع فى وجهك حزن امرأة.. حزن حقيقى.. مجرد التظاهر بالحزن لن يجدى أمام داود. تقدرين؟
- أقدر؟ لست فى حاجة إلى تظاهر أو مقدرة. قلبى بحكم تكوينه مكلوم وحزين.
- إذن ما ينقصكِ هو أن تتسربلى بثياب الحزن ولا تدهنى بزيت. بل كونى كامرأة لها أيام كثيرة وهى تنوح على ميت. ادخلى إلى الملك وكلميه بهذا الكلام.
- ما الكلام؟
- كل الذى سأصبه فى أذنيك وأجعله فى فمك.

استأذنت المرأة فى الدخول إلى الملك. خرَّت على وجهها إلى الأرض وسجدت. قالت:

- أعنْ أيها الملك.

سألها داود:

- ماذا بك وأى عون تطلبين؟

أجابت:

- أنا امرأة أرملة. قد مات رجلى.
- تطلبين بيتاً أو مالاً؟
- كرم سيدى لم يترك فى المملكة فقير. لى بيت فسيح وعندى من المال الكثير.

- ما المشكلة إذن؟
- هذا هو وجعى وتعاسة تعاسات حياتى.
- تكلمى.
- لجاريتك ابنان. تخاصما فى الحقل وليس من يفصل بينهما. ضرب أحدهما الآخر فقتله. وهو ذا العشيرة كلها قد قامت على جاريتك وقالوا سلِّمى ضارب أخيه لنقتله بنفس أخيه الى قتله فنهلك الوارث أيضاً. هكذا يطفئون جمرتى التى بقيت ولا يتركون لرجلى اسماً ولا بقية على وجه الأرض.

استمع داود إلى حكاية المرأة فى انتباه كامل. عندما توقفت عن الكلام قال لها:

- اذهبى إلى بيتك وأنا أوصى فيك.

قالت المرأة للملك:

- علىَّ الإثم يا سيدى الملك وعلى بيت أبى. والملك وكرسيه نقيان.

رد الملك:

- إذا كلمك أحد فأتى به إلىَّ فلا يعود يمسك بعد.
- اذكره أيها الملك الرب إلهك حتى لا يُكثِر ولىُّ الدم القتل لئلا يهلكوا ابنى.
- حى هو الرب إنه لا تسقط شعرة من شعر ابنك إلى الأرض.

قالت المرأة:

- لتتكلم جاريتك كلمة إلى سيدى الملك.

- تكلمى.
- لماذا افتكرت بمثل هذا الأمر على شعب الله ويتكلم الملك بهذا الكلام. كمذنب بما أن الملك لا يرد منفيَّه.
- من المنفى الذى تشيرين إليه أيتها المرأة؟
- أبشالوم يا سيدى الملك.

***

تأمل داود المرأة لحظات. سألها:

- لا تكتمى عنى أمراً أسألك عنه.
- ليأمر سيدى الملك.
- هل يد يوآب معك فى كل هذا؟
- حية هى نفسك يا سيدى الملك لا يُحاد يميناً أو يساراً عن كل ما تكلم به سيدى الملك. لأن عبدك يوآب هو أوصانى وهو وضع فى فم جاريتك كل هذا الكلام. لأجل تحويل وجه الكلام فعل عبدك يوآب هذا الأمر وسيدى حكيم كحكمة ملاك الله.
- أحسنت فيما قلت.

انصرفت المرأة بعد أن قامت بمهمتها وبلغت رسالتها تماماً كما أراد يوآب. أرسل الملك إلى يوآب. قال له وقد وقف أمامه:

- أحسنت فى تبليغ رسالتك يا يوآب.

لم يتظاهر يوآب بالتغابى أو عدم المعرفة. قال:

- أنا عبد من عبيد الملك. لا أريد إلا الخير لبيت سيدى داود:

قال الملك:

- هأنذا قد فعلت هذا الأمر فأذهب رُدَّ الفتى أبشالوم.

سجد يوآب. بارك الملك. قال:

- اليوم علم عبدك أنى قد وجدت نعمة فى عينيك يا سيدى الملك إذْ فعل الملك قول عبده.
- لقد أشرت بالصواب يا يوآب. أبشالوم أجمل فتيان إسرائيل. الكل يمتدحه. لقد مات أمنون. أبشالوم يجب ألا يموت. والآن اذهب وأتى بالفتى إلى أورشليم.

نفَّذ أمر الملك. عاد أبشالوم. لكن داود رفض أن يراه. قال داود ليوآب:

- لينصرف إلى بيته ولا يَرَ وجهى.

كان داود يريد أن يشعر ولده بثقل الجرم الذى أحدثه ، رغم أنه لم يفعل ذلك فى حالة أمنون عندما اغتصب أمنون أخته ثامار. لم يعاقبه الملك وكأن ذلك الذى فعله أمنون – فى عرف الملك – حلال ومباح. ويبدو أن داود نفسه فى هذا المجال بالنسبة لأولاده لم يكن قدوة. فهو من قبل قد زنى.

انصرف أبشالوم إلى بيته ولم ير وجه الملك. عاش فى هدوء مع أهل بيته وكان له ثلاثة بنين وبنت واحدة أسماها ثامار. وكانت امرأة جميلة المنظر.

عامان كاملان وأبشالوم فى أورشليم لم ير وجه الملك. مغضوب عليه. لكن حتى متى؟ كان من الأفضل أن يظل فى منفاه البعيد ، بدلاً من أن يعيش منفياً وهو فى جوار بيت الملك. أرسل إلى يوآب رسولاً يطلب منه الحضور كى يأخذه إلى حيث الملك. يوآب هو

- إنه ولدك يا سيدى وسترى كيف يقدم فروض الولاء بين يديك؟ والحكم أولاً وأخيراً لمولاى الملك.
- أحضره.

دعا يوآب أبشالوم كى يحظى بلقاء أبيه. أتى وسجد فى الحال على وجهه إلى الأرض قدام الملك. قام داود. أخذ بيد أبشالوم حتى قام. احتضنه وقبّله.

***

بعد لقاء الملك اتخذ أبشالوم لنفسه مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً يجرون قدامه. كان يبكر ويقف بجانب الطريق المؤدى إلى باب الملك. وكل صاحب دعوى آت إلى الملك لأجل الحكم كان أبشالوم يدعوه إليه. يسأله:

- من أى مدينة أنت؟
- من أحد أسباط إسرائيل عبدك .. يا سيدى.
- انظر. أمورك صالحة ومستقيمة. ولكن ليس من يسمع لك اليوم من قبل الملك.
- ماذا أفعل إذن؟
- اسألنى. أنصفك.
- أنت يا سيدى؟
- نعم. أنا. ألست أنا أبشالوم بن داود الملك؟
- متأكد أنا مما تقول يا سيدى. لابد وأن قد باركك الرب كما بارك أباك من قبل.
- علىَّ بدعواك أو خصومتك فأنصفك.

حاول الرجل أن يسجد أمام أبشالوم ، لكن أبشالوم أمسكه. بدلاً من أن يدعه يسجد جذبه إليه وقبّله.

التفت الجموع حول أبشالوم. اتخذوا منه قاضياً فى الأرض يأتى إليه كل إنسان له خصومة ودعوى. كان أبشالوم يتلطف معهم. لا يسمح لأى منهم أن يسجد. كان يمد يده ويمسك صاحب الدعوى ويقبله. فعل مثل هذا الأمر لجميع إسرائيل الذين كانوا يأتون لأجل الحكم إلى الملك. بهذا السلوك نجح أبشالوم فى أن يسترق قلوب رجال إسرائيل.

***

تزايد عدد الرجال حول أبشالوم. ومع تزايدهم تزايدت أطماعه ومطامحه. لقد ملك داود بما فيه الكفاية. لماذا لا يصبح هو الملك؟!!

فكر أبشالوم فى الأمر. استخدم الحيلة فى الحديث إلى أبيه. قال وهو ينحنى فى خضوع:

- سيدى الملك دعنى أذهب وأوفى بنذرى الذى نذرت للرب فى حبرون.
- أى نذر؟
- عبدك نذر نذراً. فى منفاى بعيداً عن أورشليم قلت: إن ارجعنى الرب إلى أورشليم فإنى أعبده وأذبح له.

قال الملك وهو لا يدرى بما يدبره أبشالوم:

- اذهب بسلام.

قبّل أبشالوم الأرض بيد يدى الملك وتوجه من فوره إلى "حبرون" ومنها أرسل جواسيس فى جميع أسباط إسرائيل قائلاً إذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد مَلَك أبشالوم فى حبرون.

كان مع أبشالوم مئتا رجل من أورشليم. اتبعوه وهم لا يعرفون شيئاً عن نواياه. وأرسل أبشالوم إلى أخيتوفل "مشير" داود كى ينضم إليه. استجاب أخيتوفل دون تردد. قال له أبشالوم وهو يعانقه.

- لقد حانت لحظة أن يصبح أبشالوم ملكاً. أليس كذلك؟
- الحق ما تراه يا سيدى. لقد تقدم داود فى السنين وطالت أيام حكمه.
- كان عليه أن يتخلى من تلقاء نفسه ويترك العرش لمن يقدر عليه.
- صعب يا أبشالوم. صعب على صاحب العرش أن يترك عرشه أو على صاحب السلطان أن يترك سلطانه. إن للسلطة بريقاً يخلب الألباب. من المستحيل أن يتخلى صاحب الكرسى عن مقعده إلا إذا مات أو قتل أو جاء من هو أقوى منه فانتزعه منه انتزاعاً كما تنتزع النبتة بجذورها من باطن الأرض.
- لن ننتظر موت داود. ولن نقتله. نختار الثالثة: نقتلعه من جذوره اقتلاعاً ونلقى به إلى مكان بعيد يختفى فيه .. يموت. لن نميته نحن .. يميته إله إسرائيل. لن نحمل وزر دمه. كى لا يقول شعب إسرائيل: قتل أبشالوم أباه. سيقولون: ملك أبشالوم لأن داود تقدمت به السنون فعجز.
- علينا أن نعمل الآن بسرعة وحذر.
- ستكون يا أخيتوفل قائد جيشى وصاحب مشورتى. هذا عهد بينى وبينك.

- يشهد على القول والنوايا رب الجنود .. إله إسرائيل. والآن فلنتحرك بالرجال إلى أورشليم.
- نحاصرها؟
- نأخذها على حين غرة قبل أن يستعد داود ورجاله. لا تنس أن يوآب قائد جيوش داود رجل شديد الخطر.
- أعرف ذلك حق المعرفة. اجمع الرجال والعبيد وكل من يقدر على حمل السلاح. الأيام القادمة أيام حسم فاصلة.

التف الشعب حول أبشالوم وتزايد عدده. كانت الفتنة شديدة والأصوات تتعالى فى كل أرجاء إسرائيل: ابشالوم قد مَلَكْ .. أبشالوم قد أصبح الآن ملكاً !!

أحسَّ داود أن قلوب الرجال فى إسرائيل قد مالت إلى أبشالوم .. صارت وراءه. جمع كل قادة جيشه وعبيده الذين معه فى أورشليم. قال لهم:

- علينا أن نترك أورشليم. أتوقع أن يهاجمها أبشالوم فى أية لحظة. لابد وأن ننجو من وجهه. وفى مكان آمن نتدبر الأمر.

قال يوآب:

- لماذا لا ننتظر .. نقاتل؟

أجاب داود على السؤال بسؤال:

- نقاتل من؟
- الذين يحاولون إيذاء الملك.

- لن تقاتل إسرائيلُ إسرائيلَ إلا إذا كانت هذه هى مشيئة الرب. علينا أن نستخدم العقل بدل السيف كلما كان ذلك مستطاعاً.
- تطالبنا بالانسحاب من أورشليم؟
- لابد من تجنب المواجهة مع أبشالوم ، لا تعرضوا المدينة للضرب بالسيف. يجب ألا يدركنا هنا وينزل بنا الشر.

خرج داود وجميع أهل بيته. لم يترك وراءه سوى عشر نساء سرارى لحفظ البيت. فى أثره خرج كل الشعب الموالى له وكذا جميع عبيده كلنوا يعبرون بين يديه مع جميع الجلادين والسعاة وجميع "الجتيين" ست مائة رجل أتوا وراءه من "جت" .. كانوا جميعاً يعبرون بين يدى الملك.

ارتفع صوت البكاء. كانت جميع الأرض تبكى بصوت عظيم وجميع الشعب يعبرون. وعبر الملك فى وادى "قدرون" واتخذ الجميع اتجاههم نحو طريق البرية.

ظهر صادوق الكاهن هو أيضاً ومعه أبياثار وجميع اللاويين يحملون "تابوت عهد الله".

قال داود لصادوق:

- لماذا أتيتم أنتم وتابوت الله؟

أجاب صادوق:

- لن نفارق مسيح الرب لن نتقاعس عن الوقوف إلى جانب الملك. وليكن تابوت الرب فى وسطنا كما كان دوماً فى كل حروب إسرائيل.

قال داود لصادوق:

- ارجع تابوت الرب إلى أورشليم. فإن وجدت نعمة فى عينى الرب فإنه يرجعنى ويرينى إياه ومسكنه. وإن قال هكذا إنى لم أسر بك فهأنذا فليفعل بى حسبما يحسن فى عينيه. أنت راءٍ يا صادوق. ارجع إلى المدينة بسلام أنت وأخيمعص ابنك يوناثان بن أبياثار. ابناكما كلاكما معكما.

سأل صادوق:

- إلى ما يهدف مولاى؟
- أن تكونوا عيناً لى فى أورشليم. كل ما يحدث أحاط به فى الحال.
- وأين سيكون سيدى؟
- فى سهولة البرية حتى تأتى كلمة منكم لتخبيرى.
- ستكون أياماً صعبة على سيدى الملك.
- قدر خط على بنى إسرائيل. والآن عودوا بالتابوت. كونوا على يقظة تامة حتى لا نهلك جميعاً.

ارجع صادوق وأبياثار تابوت الله إلى أورشليم وأقاما هناك كما أمر داود.

فى موكب حزين اتجه داود إلى مصعد جبل الزيتون. من الصعب على أكبر أصحاب الخيال المتقد أن يتصور داود فى هذا الوضع المهين. داود الذى أذل الجبابرة يصعد جبل الزيتون حافياً ورأسه مُغطًّى ومن داخله يتصاعد أنين. جميع الشعب الذين معه غطوا كل

واحد رأسه وكانوا يصعدون وهم أيضاً يبكون. تزايد صوت البكاء وتعالى وكأن صخور الجبل هى أيضاً تشارك داود البكاء.

أى مصير ينتظرك يا داود .. يا قاتل العمالقة ومذل الجبابرة ومدمر المدن والقرى بما فيها ومن فيها بالحديد والنار؟ أية قوة تستطيع أن تنقذك من سيف أبشالوم وقد نصب نفسه ملكاً فى أورشليم ومن حوله تزايد المحبون والأنصار؟ ليس أمامك يا داود إلا الصلاة والدعاء واستخدام ما اشتهرت به من حكمة ودهاء.

فوق قمة جبل الزيتون سجد داود. ارتفع صوته بالتوسل والدعاء. فجأة وجد أمامه "حوشاى الأركى" ممزق الثوب وعلى رأسه تراب. سأله داود وقد ازدادت مرارة نفسه:

- لماذا أنت هنا؟ إن تبعتنى تكون علىَّ حملاً. ثقلت أحمالى ولست فى حاجة إلى مزيد.
- أبشالوم يسيطر على أورشليم ويؤازره فى الفتنة أخيتوفل. لقد اختار أن يكون بين الفاتنين.

رفع داود يديه إلى السماء. قال:

- حَمِّقْ يارب مشورة أخيتوفل ولا تجعل له سلطاناً على داود. مسيحك يارب فى حاجة إلى مددك وعونك فلا تتخلى عنا ونحن نعانى مما نحن فيه من كرب وضيق.

بعد أن انتهى داود من دعائه التفت إلى حوشاى. **قال له:**

- استمع جيداً لما أقول. وجودك معى يزيد عبئى ولا يضيف إلى قوتى. ستكون بالنسبة لنا أكثر نفعاً لو عدت إلى أورشليم:

- كيف يا سيدى الملك؟
- إذا رجعت إلى المدينة توجه فوراً إلى أبشالوم. قل له: أنا عبدك أيها الملك.
- اعترف به ملكاً؟
- نعم.
- تطلب منى أن أخونك يا سيدى؟
- ليست خيانة. إنها الحيلة والمكيدة.
- أوضح سيدى.
- قل له: أنا عبد أبيك من زمان والآن أنا عبدك.
- هل يصدقنى؟
- قل له: لقد انقضى زمن داود وغربت شمسه وأنت لا تتبع الشموس الغاربة. لابد وان تشرق الشمس دوماً على إسرائيل. أشعره أنه هو الشمس الجديدة والأمل القادم.
- تعتقد أنه سوف يقتنع بما أقول؟
- إنه لن يفكر كثيراً فيما تقول. سيفرح بازدياد الأنصار من حوله. الثوار من أمثال أبشالوم ينفعلون بشدة ولا يفكرون بعمق.
- والخطوة التالية؟
- لازمه قدر المستطاع. لا تبتعد عنه كثيراً. أظهر له أنك ناصح أمين عميق الولاء. اكسب ثقته وعمق الإحساس فيه بأنك من أخلص الناس إليه وأكثرهم خوفاً عليه.
- أهذا هو الهدف الرئيسى الذى من أجله أعود إلى أورشليم؟

- بالطبع لا.
- ما هو دورى إذن؟
- أن تبطل لى مشورة أخيتوفيل.
- ما أعمق حكمتك أيها الملك!!
- دعنى أُكمل. معك هناك صادوق وأبياثار الكاهنان. كل ما تسمعه من بيت الملك أخبر به صادوق وأبياثار. مع ابنيهما ترسلون إلىَّ كل كلمة تسمعونها. لعلك فهمت الآن يا حوشاى.
- نعم سيدى وأنا طوع أمرك ورهن إشارتك.

وأتى حوشاى صاحب داود إلى المدينة وأبشالوم يدخل أورشليم.

***

وصل داود إلى "بحوريم" وإذا به يفاجأ برجل خارج من هناك من عشيرة بيت شاول اسمه شِمْعَى بن جيرا. أخذ شمعى يسب ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك وجميع الشعب وجميع الجبابرة عن يمينه وعن يساره.

صاح شمعى بأعلى صوته وهو يسب داود:

- اخرج. اخرج. يا رجل الدماء ورجل بِلِيَّعال. قد رد عليك الرب كل دماء بيت شاول الذى ملكت عوضاً عنه. وقد دفع الرب المملكة ليد أبشالوم ابنك. وهأنت واقع بشرك لأنك رجل دماء.

قال أبيشاى بن صروية أحد قادة جيش داود:

- لماذا يسب هذا الكلب الميت سيدى الملك؟ دعنى أعبر فأقطع رأسه.

وكان جواب داود:

- مالى ولكم يا بنى صروية.
- ماذا يقصد مولاى؟
- دعوه يسب لأن الرب قال له سُبَّ داود.
- من المستحيل يا سيدى أن يكون الرب قد أمره أن يسب مسيحه.
- لا مستحيل اليوم يا أبيشاى. هل توقع أى منكم أن ينقلب أبشالوم على أبيه؟
- صعب ومؤلم أن نتخيل ما حدث.
- لكنه حدث. هو ذا ابنى الذى خرج من أحشائى يطلب نفسى. هل تستكثرون على رجل من بيت شاول أن يسب داود وقد نالهم من أذانا الكثير؟
- باستطاعتنا أن نوقف سبابه أيها الملك.
- لا. دعوه يسب لأن الرب قال له. لعل الرب ينظر إلى مذلتى ويكافئنى الرب خيراً عوض مسبته بهذا اليوم.

وطوال الطريق كان شمعى يسير فى جانب الجبل مقابله ويسب وهو سائر ويرشق بالحجارة ويذرى التراب.

شعر الملك وكل الشعب الذين معه بالإعياء. توقفوا عن السير. استراحوا.

***

دخل ابشالوم إلى أورشليم دخول المنتصر دون قتال ومعه أخيتوفل وجميع الشعب الذين اتبعوه من رجال إسرائيل. أمر أخيتوفل أن يُضرب بالبوق. ومع صوت البوق تعالى الهتاف.

- مرحباً بأبشالوم. مرحباً بملك إسرائيل.

تقدم من بين الجموع حوشاى صاحب داود. سجد امام أبشالوم وهو يقول:

- ليحْىَ الملك. ليحْىَ الملك.

صاح أبشالوم فى عدم تصديق:

- أنت يا حوشاى؟!!
- نعم أنا يا مولاى.
- غريب!!
- أية غرابة فى أن أسجد لملك إسرائيل؟
- أهذا معروفك مع صاحبك؟ ألست من اخلص رجال داود؟ لماذا لم تذهب معه؟
- أنا مع الذى اختاره الرب يا مولاى. وقد اختارك الرب ملكاً على إسرائيل. فكيف أعصى أمر الرب .. وكيف أخالف كل رجال إسرائيل وقد ارتضوا بك ملكاً والتفوا حولك؟ لك يا سيدى أكون عبداً ومعك أقيم.
- كنت تخدم أبى.
- ما الغرابة فى ذلك يا سيدى؟ من أخدم الآن؟ أليس بين يدى ولده؟ كما خدمت بين يدى أبيك كذلك أكون بين يديك.
- حسناً .. هذا سلوك نبيل. سيكون لك فينا مكانة ترضيك.
- لا أرجو سوى ملازمة سيدى. أموت فداء لك بين يديك.
- لتكن رجلاً من رجالنا. فاسعد بما أنت فيه.

- أقبل الأرض بين يدى مولاى.
- لا تعال أحتضنك وأقبلك.

هكذا وصل حوشاى إلى ما سعى إليه فى خدمة سيده داود. ولم يشك فى أمره أحد.

كان أخيتوفل يتمتع بثقة أبشالوم .. ثقة مطلقة. لا يقدم أبشالوم على أمر إلا إذا استشاره ورجع إليه. تحدث أبشالوم وهو يركز نظره على أخيتوفل:

- والآن يا أخيتوفل ..
- أمر مولاى.
- ماذا نفعل كى نحكم قبضتنا على أورشليم وننشر سطوتنا فى كل ربوع إسرائيل كى يشعر الشعب أن أبشالوم جدير بأن يجلس على كرسى الملك؟

بعد لحظة تفكير أجاب أخيتوفل:

- ادخل إلى سرارىّ أبيك اللواتى تركهن لحفظ البيت فيسمع كل إسرائيل أنك قد صرت مكروهاً من أبيك فتشدد أيدى جميع الذين معك. بعدها نضرب داود ورجاله ضربة لا تبقى على أحد. عندها يسجد الجميع لأبشالوم.
- ما ذنب سرارى أبى وما دخلهن بما يجرى الآن من صراع على كرسى العرش؟
- دخولك بهن إعلان عن أن آخر خيط كان يربطك بداود قد انقطع.

- ألن يغضب الشعب عندما أزنى بسرارى أبى؟
- وهل غضب الشعب عندما زنى أبوك بامرأة أوريا الحثى وقتل زوجها ثم ضمها إلى نسائه؟ لقد زنى داود وكذب على أوريا ثم قتله. إنك بفعلتك هذه لا ترتكب إثماً. إنك تنتقم لأوريا وقد كان أحد أبطال إسرائيل المعدودين. أكرر القول: داود زنى وكذب وقتل وأنا أدعوك للانتقام لشرف أوريا الذى هو من شرف إسرائيل.
- الانتقام من جنس العمل.
- العين بالعين. هذا نص من نصوص الشريعة. أنت الآن مسيح الرب وعليك أن تقيم حدوده.
- أدخل إليهن فى بيت أبى أم آتى بهن إلى بيتى؟
- لا هذه ولا تلك. سأنصب لك خيمة. ادخل إليهن أمام جميع إسرائيل.

أخذ أبشالوم بنصيحة أخيتوفل. دخل إلى سرارى أبيه أمام جميع إسرائيل. وكانت مشورة أخيتوفل التى كان يشير بها فى تلك الأيام كمن يسأل بكلام الله (صموئيل الثانى 16: 22-23).

***

اجتمع أبشالوم بكبار إسرائيل. سأل:

- هل نظل هكذا ساكنين فى إسرائيل ونحصن المدينة أم نبدأ الزحف نحو رجال داود؟

قال أخيتوفل:

- لو انتظرنا هنا سوف يطمع فينا يوآب قائد جيش داود. سيسارع بحصار المدينة. ومهما كانت قوة التحصينات لن نستطيع الصمود إلى الأبد. وقد ينفد الزاد وتطبق المجاعة عل الشعب فيثور. لماذا نتركهم أحرارًا ونكبل نحن أنفسنا بأغلال الحصار؟
- ترى أن نبدأ بالزحف؟
- دعنى انتخب إثنى عشر ألف رجل وأقوم واسعى وراء داود هذه الليلة فآتى عليه وهو متعب ومرتخى اليدين فأزعجه فيهرب كل الشعب الذى معه وأضرب الملك وحده. وأرد جميع الشعب إليك.
- عينك على أبى.
- هل يقف فى طريقك عثرة أحد غيره؟
- أنا لا أريد قتله.
- لو تمكن أحد رجاله منك لقتلك دون أىّ تردد. أنت أو داود. لابد وأن يموت أحدكما. أورشليم لا تتسع لكليكما.
- ألا ترى أنه من الأفضل أن نكتفى بنفيه؟
- إلى أين؟
- إلى أى مكان يختاره هو أو نختاره له نحن.
- أشك فى أنك تعرف داود معرفة كافية .. رغم أنه أبوك. داود ينتمى إلى جيل الجبابرة. وهو من أعتى الجبابرة جبروتاً. لن ينحنى لك أو لغيرك. أمثاله يفضلون القتال حتى الموت.
- أنسيت أنه أبى؟

- الموقف الذى نحن فيه الآن لا يحسمه سوى السيف. العاطفة التى تفور فى داخلك الآن هى مجرد شعور صبيانى وقد تقودك إلى الهلاك. موتاً تموت ولن يرحمك داود ولا عبيد داود. ضرب داود يرد إليك جميع الشعب. بعدها تعيش إسرائيل .. كل إسرائيل فى سلام.

نظر أبشالوم إلى شيوخ إسرائيل المحيطين به. سأل:

- ما رأى شيوخ إسرائيل؟

عبَّر الجميع عن موافقتهم. لقد حَسُن الأمر فى أعين كل الشيوخ. لكن أبشالوم لم يعمل فى الحال برأى أخيتوفل. كان فى داخله صراع .. داود أو المُلْك. لن يستطيع الاحتفاظ بكليهما. عليه أن يختار. والاختيار صعب.

لم يظهر أبشالوم ما يعانيه من انقسام. سيطر على مشاعره. اكتفى أن قال:

- ادع حوشاى الأركىّ فنسمع ما يقول هو أيضاً.

كان حوشاى عيناً من عيون داود .. غرس نفسه فى معية أبشالوم كى يرقب الأحداث. لم يكن من الجمع ببعيد. مثل فى الحال بين يدى أبشالوم. سأله أبشالوم:

- سمعت ما قاله أخيتوفل؟

- نعم. سمعت يا مولاى.

- أنعمل حسب كلامه أم لا؟

كان أبشالوم يجهل طبيعة من هم حوله من رجال .. لا يملك مقدرة الغوص فى الأعماق واستقراء الأفكار .. لا يعرف حقيقة من هو معه ومن هو مدسوس عليه .. عاطفته فى أغلب الأحوال كانت تسيره واندفاعه كان يسيطر عليه.

صمت حوشاى طويلاً يعمل فكره. صاح فيه أبشالوم:

- سألتك سؤالاً. لم لا تنطق؟ تكلم!!

قال حوشاى:

- ليست حسنة مشورة أخيتوفل. ليست حسنة هذه المرة.

فوجئ أبشالوم بكلمات حوشاى. لقد وافق كل شيوخ إسرائيل على رأى أخيتوفل. لم يعترض حوشاى. سأله أبشالوم.

- إن كنت لا توافق على مشورة اخيتوفل فما هى مشورتك؟ ماذا تقول أنت؟

قال حوشاى وهو يحاول قدر جهده إخفاء حقيقة مشاعره:

- أنت تعلم طبيعة أبيك ورجاله. إنهم جبابرة وذوى بأس شديد.
- أعلم ذلك حق العلم. لكنا نحن أيضاً رجال قتال ولا نخشى الحرب مهما كان جبروت العدو.
- يا سيدى إن أنفسهم مُرَّة كدبة مُثكّل فى الحقل. وأبوك رجل قتال من طراز نادر فريد. يأخذ حذره فى كل خطوة يخطوها ولا يقدم على أمر إلا بعد تفكير عميق.
- هذا أيضاً أعرفه.

- مالا تعرفه يا سيدى هو أنه لا يبيت مع الشعب ومن العسير أن تعثر عليه وتضربه وحده كما تخيل أخيتوفل. هل يعرف أى من الحضور هنا أين هو مختبئ داود الآن؟

ران على الجميع صمت عميق. لم ينطق أحد. قال حوشاى وقد امتلأ داخله بالثقة فى مقدرته على تضليل أبشالوم.

- هأنت ترى يا سيدى .. لا أحد يعرف. ربما يكون مختبئاً الآن فى أحد الحفر أو فى أحد الأماكن المجهولة. من العبث أن تطارد رجلاً لا تعرف أين هو .. مستحيل أن تطارد رجلاً لا تعرف مقراً له.
- نرسل الرجال وبأعداد هائلة يحاصرون كل الأمكنة ويضربون.
- يضربون فى عشوائية يا سيدى وليس بتخطيط مدروس وعن يقين. ويكون إذا سقط بعضهم فى الابتداء أن السامع يسمع فيقول قد صارت كسرة فى الشعب الذى وراء ابشالوم. أيضاً ذو البأس الذى قلبه كقلب الأسد يذوب ذوباناً لأن جميع إسرائيل يعلمون أن أباك جبار والذين معه ذوو بأس.
- إذن .. بماذا تشير؟
- نرسل العيون. نحدد الأماكن بكل دقة. نعرف اين هو واين مركز قوته الضاربة. بعدها يجتمع إليك كل إسرائيل من "دان" إلى "بئر سبع" كالرمل الذى على البحر فى الكثرة وحضرتك سائر فى الوسط. نفاجئه حيث هو. نأخذه على حين غرة هو ورجاله. ننزل عليه نزول الطَّل على الأرض. عندها إذا أردت

تبيده وكل من معه .. لا تبقى على أحد. وإن شئت أن تأخذه أسيراً .. تبقى عليه حياً .. أن تنفيه من الأرض .: افعل حسب رغبتك .. وإن رغبت فى موته يموت!!

قال أبشالوم وكل رجال إسرائيل إن مشورة حوشاى أحسن من مشورة أخيتوفل. وهكذا كانت إرادة الرب: أن يبطل مشورة أخيتوفل الصالحة لكى ينزل الشر بأبشالوم.

وفى الحال التقى حوشاى بصادوق وابياثار الكاهنين أخبرهما بمشورة أخيتوفل وكيف عمل هو على إبطالها دون أن يشعر بذلك أبشالوم أو أى من شيوخ إسرائيل. طلب منهما أن يرسلا إلى داود: عليه أن لا يبيت هذه الليلة فى سهول البرية وألا يستقر فى مكان يسهل تحديده وإلا تم القضاء عليه هو وجميع الشعب الذى معه.

هكذا نجح حوشاى الأركى فى لعب دوره كعبد مخلص لسيده داود الملك.

***

وصلت العيون إلى داود. تم إخباره بما اتفق عليه أبشالوم وشيوخ إسرائيل ، وكذا بمشورة حوشاى الأركى. فى الحال قام داود وجميع الشعب الذين معه. عبروا الأردن. وعند الصباح لم يبق أحد لم يعبر. وأعد داود نفسه هو وجابرة جيشه لمعركة فاصلة.

وجد أخيتوفل أن مشورته لم يعمل بها. شعر أنه قد بدأ يفقد مكانته وأن هيبته قد طُعِنت فى صميمها. سيطر عليه غضب هائل. توجه فى الحال إلى أبشالوم. قال:

- طلبت مشورتى فأشرت ولم تعمل بها. فضلت عليها مشورة غيرى. ما قيمة وجودى هنا الآن؟

قال أبشالوم:

- أنت من خيرة رجالى. أنت قائد الجيش .. ولا غنى لنا عنك.
- كيف أقود الرجال فى معركة خطَّط لها غيرى؟
- إن حوشاى واحد منا. ولقد اشار علينا بدافع الإخلاص والحب.
- كلمات جوفاء. نجح حوشاى فى أن يخدعك.
- ماذا تقصد؟
- من خان سيده الأول من السهل عليه أن يخوف السيد الجديد. متأكد أنت من ولائه لك؟
- الرجل أخلص فى خدمتنا منذ جاء .. ما خالجتنا تجاهه ذرة شك.
- لك عينان لكنك لا ترى.
- هذا كلام لا يقال يا أخيتوفل.
- دمك على رأسك. أنت سائر إلى حتفك. اما أنا فلن أكون إلى جوارك كى اشهد مصرعك.
- أى هراء ذلك الذى تقول؟!!
- أنا لا أقول هراء. وداعاً يا أبشالوم. وداعاً يا من كنا نأمل أن يكون ملكاً!!
- تتخلى عنى؟
- أنت تخليت عن نفسك.

- ذاهب أنت إلى داود .. تخوننى؟
- أنا لست حوشاى آخر .. أغير سادتى كما أغير نعلى.
- ماذا أنت فاعل إذن؟
- سترى الآن ترى!!

أنتزع أخيتوفل سيفه. ثبتّه فى الأرض. انحنى عليه. اخترق السيف بطنه. خرج من ظهره. مات أخيتوفل أمام أعين إسرائيل. كل من حضر شهد مصرعه.

***

أقام أبشالوم "عماساً" على الجيش وهو ابن رجل اسمه يثرا الإسرائيلى. وقد عرف عماسا بشجاعته الفائقة وحبه الشديد لأبشالوم. كان يعتبر نفسه عبداً من أخلص عبيد الملك.

أخبر حوشاى أبشالوم أنه قد حانت لحظة الخروج للقتال والنصر بعد أن تم رصد تحركات كل رجال داود. فى نفس الوقت كان حوشاى يرسل لداود .. يحيطه علماً بكل ما يحدث فى بيت أبشالوم وفى إسرائيل.

نزل إسرائيل وابشالوم فى أرض "جلعاد". كان داود قد استعد للقاء. استخدم كل مهارته وخبرته الهائلة فى القتال. أحصى الشعب الذى معه وجعل عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات. قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام: ثلث تحت قيادة يوآب ، وثلث تحت قيادة أبيشاى بن صروية أخى يوآب. أما الثلث الأخير فجعله تحت قيادة أحد أبطاله المعدودين: "إتّاى الجَتّى".

جمع داود الشيوخ والقادة قبل اللقاء. قال لهم:

- إنى أنا أيضاً أخرج معكم.

قالوا:

- لا. لا تخرج.
- كيف لا أخرج وقد خضت معكم معارك كثيرة وما ابتعدت عنكم فى قتال؟

أجاب يوآب:

- الأمر هذه المرة يختلف أيها الملك. إنه صراع مرير من أجل التاج. لو سقطت أنت يسقط الشعب كله فى قبضة أبشالوم. أما نحن. تأكد أنه لو مات نصفنا لا يبالون بنا ولو هربنا أيضاً لا يبالون. والآن أنت كعشرة آلاف منا .. وتزيد.
- تقاتلون أنتم وأبقى أنا فى المدينة؟
- هذا ما نرى أنه الأصلح .. أن تكون لنا نجدة من المدينة.
- مادام هذا رأيكم فإنى آخذ به. ما يحسن فى أعينكم أفعله.

وقف الملك يستعرض جيوشه الثلاث .. شمل بنظره المئات والألوف. رفع صوته عالياً وهو يتحدث إلى القادة الثلاث: يوآب وأبيشاى وإتاى:

- ترفقوا بالفتى أبشالوم. يا رجال داود .. يا من تقاتلون تحت راية رب الجنود .. لا تنسوا كلماتى: ترفقوا بالفتى أبشالوم .. ترفقوا بولدى!!

كان القتال فى وعر "أفرايم". حاصر قادة داود الثلاث جيش أبشالوم من ثلاث جهات. أما الجهة الرابعة فقد كان يصعب اختراقها

لأى من الطرفين ذلك لأنها كانت شبه مغلقة بأشجار الصنوبر كثيفة الأغصان.

دوّى صوت البوق. من بعده سمع صوت يوآب:

- قاتلوا يا رجال داود من أجل مسيح الرب ومن أجل أورشليم!!

بدأ الهجوم وحشياً طاغياً كاسحاً. ارتوت الأرض من دماء القتلى إذ كانت المقتلة عظيمة. سقط عشرون ألفاً من الرجال. وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب عن الذين أكلهم السيف فى ذلك اليوم.

انكسر شعب إسرائيل أمام عبيد داود. من لم يقتل حاول الفرار. انفض الجميع من حول أبشالوم تلفت فلم يجد سوى القتلى والجرحى وأولئك الذين يحاولون النجاة من السيف بالفرار .. لو كانت هناك فرصة للفرار.

اندفع أبشالوم بقوة وهو يشد على فرسه نحو الأشجار .. فى اندفاعته غير الواعية تعلق رأسه بالمتشابك من كثيف الأغصان. وجد نفسه معلقاً بين السماء والأرض. أما الفرس فقد مرَّ من تحته واختفى عن الأنظار.

***

أبشالوم الذى اختاره الشعب ملكاً فى أورشليم .. أبشالوم زينة رجال إسرائيل .. أبشالوم بكل قوته وفتوته وشجاعته وصولجانه .. معلق من رأسه .. عاجز لا يستطيع الخلاص لم يهزمه فارس فى الميدان .. لم يوقفه سيف .. لم يصبه سهم .. بل هزمته خيانة حوشاى.

صرخ أبشالوم بأعلى صوته وجسده يتأرجح فى الهواء:

- أنا أبشالوم الملك .. أنا ابن داود الملك!! من يساعد أبشالوم على الخلاص؟

رآه رجل وعرفه. أفزعه المنظر بعد أن دوى فى أذنيه الصوت. أسرع إلى القائد يوآب. صاح فى فزع:

- سيدى !!
- ماذا بك؟ لماذا ترتعد هكذا؟ هل رأيت صاعقة وهى تكاد أن تنصب علينا من السماء؟
- رأيت ما هو أفظع يا سيدى القائد.
- تكلم يا رجل .. لماذا يرتج جسدك كهذا كالمخبول؟
- رأيت ..

صرخ فيه يوآب:

- ماذا رأيت؟ تكلم وإلا ضربت عنقك.
- رأيت أبشالوم!!
- فى وادى الموت.
- لا.
- أين إذن؟
- معلق من رأسه وجسده يتأرجح فى الهواء.
- مشنوق.
- لا يا سيدى. إنه على قيد الحياة. يصيح بأعلى صوته: أنا أبشالوم الملك .. أنا ابن داود الملك .. من يساعد أبشالوم على الخلاص؟

- لماذا لم تضربه هناك إلى الأرض؟ لماذا لم تقتله؟

قال الرجل وقد تملكه الرعب:

- أنا يا سيدى. أقتله؟!!
- نعم. ولو قتلته وأخبرتنى لأغنيت حياتك بكثير من الفضة.
- ولا بكل ذهب الأرض.
- جبان أنت. هذا واضح من سلوكك ومظهرك.
- لا يا سيدى. أنا من أشجع الرجال فى ميدان القتال.
- إذن لماذا لم تقتله وهو معلق كما تقول؟
- من يستطيع يا سيدى أن يمد يده إلى ابن الملك.

من يستطيع أن يقتل ابن مسيح الرب؟

- أنا !!
- أنت يا سيدى يوآب؟
- نعم.
- أنت تخالف وصية الملك.
- أية وصية أيها المخبول؟
- الملك أوصاك فى آذاننا أنت وأبيشاى وإتاى قائلاً: احترزوا أياً كان منكم على الفتى أبشالوم. ولو قتلتُه لعلم الملك. وأنت كنت وقفت ضدى.

قال يوآب لمن حوله:

- نحوا عنى هذا الرجل حتى لا أريق دمه.

لم يطق يوآب صبراً. أخذ ثلاثة سهام بيده واتجه إلى حيث أبشالوم. وجده كما قال الرجل معلقاً من رأسه .. جسده يتأرجح فى الهواء .. ولا منقذ له رغم صيحاته الصارخة. صاح يوآب بصوت كالرعد.

- توقف عن طلب النجدة يا أبشالوم. لا نجاة لك اليوم.
- من؟
- أنا يوآب يا قاتل أمنون .. يا عدو داود الملك .. يا مثير القلاقل والفتن فى إسرائيل. اليوم يحل عليك غضب الرب .. اليوم ينزل بك عقابه.
- أيها العبد الضئيل الحقير ..

لم يدعه يوآب يكمل. نشب السهام الثلاثة فى قلبه وهو بعد حى. فرك يديه فى رضى تام. قال وهو ينظر إلى الدم المتدفق من قلب أبشالوم:

- نهاية مأساوية لبطل مأساوى!!

ثم أضاف وهو ينظر إلى غلمانه حاملى السلاح:

- مزقوا جسده .. ثم خذوه واخرجوه فى الوغر فى الجب العظيم .. وأقيموا عليه رجمة عظيمة جداً من الحجارة.

وكأن يوآب كان يخشى أن يُبعث أبشالوم من بين الموتى ويبدأ القتال من جديد!!

***

ضرب يوآب بالبوق. انتهت المعركة. رجع الشعب عن مطاردة إسرائيل. أوامر القائد لابد وأن تطاع. لقد نجح يوآب فى الانتقام للملك من أعداء الملك.

لكن الموقف الصعب بعد النصر كان فى كيفية نقل البشارة بالنصر إلى الملك. انتصر عبيد داود. هذا فرح كبير. لكن أبشالوم قد قُتل!!.

من يستطيع المخاطرة بحياته فى نقل خبر هذا الحزن الكبير إلى داود؟

النصر وإراقة دم ابشالوم فى آن واحد .. الضحكة والصرخة .. النصر والهزيمة .. الحياة والموت .. السيف والدم الذى حل على بيت الملك .. كيف يتحمل ذلك كله قلب داود؟!!

جاء الرسول الأول من عند يوآب بالبشارة .. بشارة النصر فقط. سجد للملك على وجهه إلى الأرض. قال:

- مبارك الرب إلهك الذى دفع القوم الذين رفعوا أيديهم على سيدى الملك.

سأله الملك:

- أسلامٌ للفتى أبشالوم؟

أجاب رسول يوآب:

- قد رأيت جمهوراً عظيماً عند إرسال يوآب عبد الملك.

ولم أعلم ماذا.

- دُر. قف ههنا. انتظر.

جاء رسول آخر من عند يوآب. قال:

- ليبشر سيدى الملك لأن الرب قد انتقم لك من جميع القائمين عليك.

كرر الملك نفس السؤال الذى يؤرقه:

- أسلام للفتى ابشالوم؟

- ليكن كالفتى أعداء سيدى الملك وجميع الذين قاموا عليك بالشر.

انزعج داوكد. صرخ:

- قتل؟

- نعم يا سيدى. قُتل ابشالوم!!

- أى يد أثيمة تلك التى امتدت إليه؟

- لا علم لى يا سيدى.

- ألم أقل للجميع ترفقوا بالفتى أبشالوم.. ترفقوا بابن داود وزينة أهل بيته.. هل كانوا صُمًا.. هل كانوا رجالاً من حجر؟!

صعد الملك إلى علية الباب وهو يبكى ويقول هكذا وهو يتمشى:

- أبشالوم .. ولدى .. يا ليتنى مُتُّ عوضاً عنك.

ازداد نحيب الملك وتكثف ألمه. صرخ:

- أبشالوم .. أبشالوم .. ليتنى أعرف من هو قاتلك!!

أخبر يوآب ببكاء داود ونياحه على أبشالوم ورغبته الجامحة فى أن يعرف من هو قاتله. ونظر يوآب إلى الشعب فإذا بالجميع قد حزن لحزن الملك. صارت الغلبة مناحة عند جميع الشعب وبدلاً من دخول الشعب إلى المدينة دخول المنتصر ، إذ بهم يتسللون كما يتسلل القوم

الخجلون عندما يهربون من القتال .. وأمام الجميع ستر الملك وجهه وصرخ بصوت عظيم:

- يا ابنى أبشالوم .. ولدى .. أبشالوم .. ما أبشع أن تكون تلك هى النهاية !!

بدا الغضب على وجه يوآب. لابد أن يكف داود عن هذا النواح الذى قد لا تحمد عواقبه. دخل إلى الملك. تحدث إليه معاتباً. قال:

- أيها الملك .. قد أخزيت نفسك اليوم وجوه جميع عبيدك منقذى نفسك اليوم وأنفس بنيك وبناتك وأنفس نسائك وأنفسك سراريك.
- كيف تجرؤ يا يوآب؟!!
- ليست جرأة يا مولاى .. أنا عبدك ورئيس جيشك وناصح لك أمين.
- بأى حال أخزيتكم قد عرضت على الجميع أن أخرج معكم للقتال وأكون فى أول الصفوف؟
- ليس هذا ما أعنيه يا مولاى. أخزيتنا بمحبتك لمبغضيك وبغضك لمحبيك.
- ما أبغضت أحداً منكم يوماً. بقدر عطائكم كنت أعطى وأزيد.
- عفواً ايها الملك. أحداث اليوم تُظهر عكس ما تقول.
- كيف؟
- لأنك أظهرت اليوم أنه ليس لك رؤساء ولا عبيد .. لأنى علمت اليوم أنه لو كان أبشالوم حياً وكلنا اليوم موتى لحسن حينئذ الأمر فى عينيك.

- أوصيتكم ألا تقتلوا الفتى.
- لكنه قُتل. وكان دمه هو ثمن بقائك على عرش إسرائيل. لاشئ يعطى مجاناً أيها الملك.

همهم الملك:

- صدقت يا يوآب.

زادت ثقة يوآب فى نفسه. قال للمك:

- الآن قم واخرج وطيب قلوب عبيدك.
- لا أستطيع الخروج الآن إلى الشعب. أحتاج وقتاً لوقف نزيف الحزن المتدفق فى داخلى .. لا أستطيع.

تحولت ثقة يوآب إلى جرأة. **قال للملك فى نبرة متواقحة:**

- إنى أقسمت بالرب إنه إن لم تخرج لا يبيت أحد معك هذه الليلة ويكون ذلك أشر عليك من كل شر أصابك منذ صباك إلى اليوم.

شعر داود أن النصر الذى أحرزه يوآب قد جمع فى يديه زمام الأمور وأنه قادر على أن يحرك الجموع فى أى اتجاه يشاء حتى ولو كان ذلك ضد الملك نفسه.

سيطر داود على مشاعره المتضاربة .. كبَّل أحزانه .. كبح جماع غضبه. قام وجلس فى الباب. تعالت أصوات تعلن جميع الشعب:

- هو ذا الملك جالس فى الباب. افرحوا يا كل الشعب وتعالوا إلى حيث الملك.

وأتى جميع الشعب أمام الملك.

***

تحدث الشعب فى جميع أسباط إسرائيل. كاد أن يدب بينهم الخصام. أبشالوم الذى مسحوه عليهم ملكاً مات فى الحرب فماذا يفعلون دون ملك؟ .. ومن هو أولى بالملك من داود الذى اختاره الرب مسيحاً والذى أنقذ الشعب من يد الأعداء ونجاه من يد الفلسطينيين. لقد هرب من أجل أبشالوم. كان لا يريد أن يقف امام ولده وجهاً لوجه وسيفاً لسيف ليس جبناً ولكن خوفاً على الولد من أن يقتل بسيف أبيه. والكل يعرف أن داود من جبابرة الأرض ذوى البأس العظيم.

لقد سقط أبشالوم قتيلاً بيد غير يد أبيه. ورغم تمرد أبشالوم وثورته بكى داود وناح وتمنى أن يكون هو المقتول.

ليس هناك من مناص من إرجاع داود الملك .. لابد وأن يعود داود.

وأرسل داود إلى صادوق وأبياثار الكاهنين قائلاً:

- كلّما شيوخ يهوذا. قولوا لهم لماذا تكونون آخرين فى إرجاع الملك إلى بيته وقد أتى كلام جميع إسرائيل إلى الملك فى بيته. أنتم إخوتى. أنتم عظمى ولحمى. فلماذا تكونون آخرين فى إرجاع الملك. قولا لعماسا قائد جيش أبشالوم: أما أنت عظمى ولحمى. هكذا يفعل بى الله وهكذا يزيد إن كنت لا تصير رئيس جيش عندى كل الأيام بدل يوآب.

ومن سوء حظ عماسا أن هذا الوعد وصل إلى سمع يوآب الذى فى الحال قرّ فى نفسه قرار: أن يتخلص من عماسا فى أقرب فرصة تحين له مكراً أو غدراً أو بأية صورة من الصور تتيحها له الظروف.

***

استمال داود قلوب جميع رجال يهوذا فأصبحوا كرجل واحد.

قالوا:

- أرجع أنت وعبيدك.

رجع الملك وأتى إلى الأردن. وأتى يهوذا لملاقاة الملك ليعبر الأردن. وعبر القارب لتعبير بيت الملك.

وعندما عبر داود الأردن وجد أمامه شمعى بن جيرا الذى كان قد سب داود أقذع سباب أثناء هربه أمام أبشالوم. سقط شمعى على وجهه أمام الملك. مرغ وجهه فى التراب. **قال وهو يبكى:**

- لا يحسب لى سيدى إثماً ولا تذكر ما افترى به عبدك يوم خروج سيدى الملك من أورشليم حتى يضع ذلك الملك فى قلبه.

قال داود فى هدوء:

- انهض يا شمعى. اليوم لا تثريب على أحد.
- عبدك يعلم أن قد أخطأ. وها أنذا قد جئت اليوم أول كل بيت يوسف ونزلت للقاء سيدى الملك.

قال أبيشاى بن صروية:

- ألا يُقتل شمعى لأجل هذا لأنه سب مسيح الرب؟

قال داود:

- مالى ولكم يا بن صروية حتى تكونوا لى اليوم مقاومين.
- معذرة سيدى. نحن عبيدك. ما نحن لك بمقاومين.
- أليوم يقتل أحد فى إسرائيل؟
- الخطيئة أجرها الموت.

- أفما علمت أنى اليوم ملك على إسرائيل؟

- نحن طوع أمرك ايها الملك.

تجاهل داود كلمات أبيشاى بن صروية. توجه بالحديث إلى شمعى. قال:

- لا تموت!!

***

ظنَّ داود أن الملك قد استقر وأن كل أسباط إسرائيل قد دانت لسلطانه. لكنه فوجئ بما لم يتوقع. رجل لئيم اسمه شبع بن بكرى .. رجل بنيامينى خرج عن إجماع الجمع .. ضرب بالبوق. قال:

- ليس لنا قسم فى داود ولا نصيب لنا فى ابن يسى. كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل.

بدأ الانقسام من جديد. متمرد آخر يرفض سلطة داود ويعلن عدم اعترافه به ملكاً.

انسحب كل رجال إسرائيل من وراء داود .. صعدوا وراء شبع بن بكرى. الذين لازموا داود ولم يتخلوا عنه كانوا وحدهم رجال يهوذا .. لازموا الملك من الأردن إلى أورشليم.

وعندما وصل داود إلى بيته فى أورشليم. كان أول إجراء اتخذه هو عزل السرارى العشر اللواتى تركهن لحفظ البيت. جعلهن تحت حجز لا يقربون أحداً ولا يقربهن أحد. كان يعولهن ويوفر لهن ما يحتجنه. لكنه لم يدخل إليهن. حكم عليهن بالحبس بعيداً عن الناس إلى يوم موتهن فى عيشة عزوبة.

ركز الملك كل تفكيره فى كيفية القضاء على شبع بن بكرى. لقد قُتل أبشالوم عندما ثار ضد أبيه وتحدى سلطان ملكه. وما أمر شبع بن بكرى بأكثر صعوبة من أمر أبشالوم.

قتلا يُقتل شبع بن بكرى هو ومن يناصره أو يتآمر معه. استدعى داود "عماسا" القائد السابق لجيش أبشالوم والذى وعده بأن يحل محل يوآب قائدا لجيوش الملك. قال داود لعماسا:

- اجمع لى رجال يهوذا فى ثلاثة أيام. واحضر أنت هنا.
- هل قرر مولاى القتال؟
- نعم. لابد من القضاء على البنيامينى شبع بن بكرى وستكون أنت على رأس الرجال قائداً.

ذهب عماسا ليجمع رجال يهوذا كما أمره الملك. لكنه تأخر عن الميعاد الذى حدده له داود وهو ثلاثة أيام. عندها استدعى داود أبيشاى. قال له:

- انظر. الآن يسئ إلينا شبع بن بكرى أكثر مما أساء أبشالوم.
- أمره يسير يا مولاى .. لا يستعصى على رجال الملك.
- أنت على استعداد للخروج الآن؟
- نحن عبيد الملك.
- إذن خذ أنت عبيد سيدك واتبعه لئلا يجد لنفسه مدناً حصينة وينفلت من أمام أعيننا.
- لن ينفلت ولن يفر. سيوفنا اقرب إلى رقبته من يده التى تمتد إلى فمه.

مع أبيشاى خرج رجال يوآب الجلادون والسعاة وجميع الأبطال، خرجوا من أورشليم ليتبعوا شبع بن بكرى.

التقى بهم عماسا ورجال يهوذا عند الصخرة العظيمة التى فى "جبعون". كان يوآب يتحرق شوقاً لمثل هذا اللقاء. إنها فرصته التى قد لا تتكرر للتخلص من عماسا. لقد وعد داود عماسا أن يكون قائد الجيوش بدلاً من يوآب ولن يسمح يوآب بذلك أبداً حتى ولو كان الذى أصدر الأمر هو داود الملك.

رحَّب يوآب بعماسا. احتفى به كما لو كان هو سيده وقائده. أخذه بين ذراعيه. ابتعد عنه. انحنى أمامه فى احترام ظاهر ما أبداه يوآب يوماً لأحد. مدَّ يده اليمنى أمسك بلحية عماسا. جذبه إليه متظاهراً انه يريد أن يقبله. أعمت المفاجأة عماسا عن حقيقة ما قد يقدم عليه يوآب. لم يحترز من السيف الذى بيد يوآب والذى غرسه يوآب فى بطنه بسرعة كالبرق. اندلعت أمعاء عماسا إلى الأرض. لم يثن عليه يوآب. سقط عماسا قتيلاً. مات غدراً.

***

ضُرب بالبوق. ارتفع صوت جهير:

- من سر بيوآب ومن هو وراء داود فوراء يوآب.

عبر كل إنسان وراء يوآب لاتباع شبع بن بكرى. اتجهوا جميعاً إلى "بيت مَعْكة" حيث يوجد شبع بن بكرى. حاصر يوآب المدينة واقام مترسة حولها. بدأت المدينة تعانى من الحصار فى حين كان جميع الشعب الذين مع يوآب يخربون لأجل إسقاط السور.

اشتد الحصار ولا منفذ للناس داخل الأسوار .. لا معونة ولا مدد. انتشر الجوع .. ارتفع صراخ الأطفال طلباً للطعام .. بدأ الموت يرفرف بأجنحته المهلكة فوق رؤوس أناس ليس لهم فيما يحدث ناقة أو جمل أو حتى مجرد شاه. لماذا تهلك المدينة؟ ما ذنب أهلها؟ لن يرضى بذلك إلا جبار ظالم. داود جبار .. هذا صحيح. لكنه لا يرضى الظلم.

نادت امرأة حكيمة من أهل المدينة من فوق السور:

- اسمعوا .. يا عبيد داود ويا كل جنده .. اسمعوا !!

التفت الجميع إلى مصدر الصوت .. امرأة تطلب منهم أن يسمعوا ويعوا. ما فكر أحد من جند داود أن يطلق سهماً يخترق صدرها ويسكت صوتها. المرأة ليست محاربة. إنها فقط تريد منهم أن يستمعوا ويعوا معنى كلماتها.

صاح أحدهم:

- تكلمى.

قالت المرأة الحكيمة فى ثبات:

- قولوا. ليوآب تقدم إلى هنا فأكلمك.

تقدم يوآب غير هياب .. لكن فى حذر. سألت المرأة:

- أأنت يوآب؟

قال:

- نعم أنا هو.
- اسمع كلام أمتك. أنا مسالمة أمينة فى إسرائيل. أنت طالب أن تميت مدينة وأما فى إسرائيل. لماذا تبلع نصيب الرب؟

أجاب يوآب:

- حاشاى حاشاى أن أبلع وأن أهلك. الأمر ليس كذلك.
- إذا لم يكن الأمر كذلك فما سبب ذلك الذى تحدثه؟
- رجل من أفرايم اسمه شبع بن بكرى رفع يده على الملك داود. سلموه وحده فانصرف عن المدينة.
- توقف عن فعل السوء بالمدينة وانتظر.

جاءت المرأة إلى جميع الشعب. صرخت بأعلى صوتها:

- لماذا تدمر مدينة ويهلك أهلها من أجل رجل واحد لا يهمنا فى قليل أو كثير؟ رجل تمرد على الملك .. ما تمردنا نحن وليس من حقه أن يفرض علينا تمرده.

صاح صوت من بين الجموع:

- كيف الخلاص؟
- يوآب رئيس جيش داود يريد رأس شبع بن بكرى. لا يريد غيره.
- هل يرتد عندها عن المدينة؟
- هكذا وعد. تدمير المدينة لا يفيده فى شئ.

انقلب أهل المدينة جميعاً على شبع بن بكرى. لم يستطع المقاومة. قتلوه. قطعوا رأسه. صاحت المرأة من أعلى السور:

- يا يوآب بن صروية !!

أجاب يوآب:

- هأنذا.
- هو ذا رأس شبع بن بكرى يُلقى إليك عن السور.

ضرب يوآب بالبوق. انصرف الجيش كله عن المدينة. كل واحد إلى خيمته. وأما يوآب فرجع إلى أورشليم .. إلى حيث الملك.

***

لم يعد لداود من أعداء فى الداخل .. تخلص من كل المتمردين على سلطانه. لكن الخوف كان دائماً يقض مضطجعه. لن ينسى الفلسطينيون أبداً أن الإسرائيليين دخلاء عليهم وأنهم قد أخذوا الأرض غصباً وهى ليست أرضهم. لن يهدأ لهم بال ولن يكفوا عن القتال حتى يستردوا بالقوة تلك الأرض التى انتزعت منهم بالقوة .. وهم أقوياء وقادرون وبينهم جبابرة.

اتخذ داود الخطوة الأولى. بدأ الحرب ضد الفلسطينيين انحدر وعبيده معه وكل رؤساء جيشه وخاض المعركة. لقيه أحد الفلسطينيين من "أولاد رافا" الجبابرة .. بيده سيف وباليد الأخرى رمح ثقيل لا يقدر على حمله عدة رجال. عند مواجهته لداود عرفه فى الحال.

صاح:

- قف يا كبير الدهاة والزناة فى إسرائيل .. يا كبير اللصوص وقطاع الطرق. دافع عن نفسك. أنا اليوم قاتلك!!

سأل داود فى كبرياء:

- وأنت .. من تكون أيها الدَّعى؟
- لست دعياً يا رويعى الغنم. أنا من سلالة الجبابرة إن ركعت على ركبتيك وتوسلت إلىَّ لا أريق دمك. آخذك أسيراً. اضعك فى قفص من حديد .. تكون عرضا لأطفال الفلسطينيين يبصقون عليك ويرجمونك بالحجارة.

- لا تتطاول على سيدك أيها العبد.
- أنا العبد .. أم أنت؟ ألم تكن فينا عبداً يا ابن يسئ .. عبداً حقيراً ذليلاً .. آويناك لعدة سنين وأنت هارب من سيف شاول .. ألم تحاول أن تقاتل فى صفوفنا ضد ذويك من بنى إسرائيل فأبعدناك لأن من يخون قومه لا يؤمن جانبه .. أيها العبد الخائن الغادر .. هيا دافع عن نفسك.

وقبل أن يوجه الفلسطينى رمحه إلى قلب داود كان أبيشاى بن صروية قد غرس سيفه فى ظهر الفلسطينى. قتله.

بعد هذا الموقف المروع الذى كاد داود أن يفقد فيه حياته. اجتمع رجال داود. حلفوا أمامه قائلين:

- لا تخرج معنا أبداً إلى الحرب. لا تطفئ سراج إسرائيل.

وتوالت حروب داود ضد الفلسطينيين. سقط الآلاف فى المعارك. لا نصر حاسم هنا ولا نصر حاسم هناك. وكأنه قدر كتب على الجميع: أن تدور الحرب إلى الأبد.

قال يوآب بن صروية لداود بعد أن تم إنقاذه من يد الفلسطينى:

- لن تخرج إلى أى حرب بعد ذلك أبداً أيها الملك. نحن عبيدك. لو سقطنا نحن .. لو سقط الآلاف منا .. وبقيت أنت .. لن تهتز أركان مملكة إسرائيل. أما لو سقطت أنت .. الملك والرمز .. مسيح الرب .. نضيع جميعاً وتمحى من الوجود كل إسرائيل.

***

هدأت نفس داود. بدأ يسعد بأيامه. لكنه ما نسى أبداً فضل الرب عليه. فى خشوع أنشد للرب نشيداً. قال:

الرب صخرتى وحصنى ومنقذى. إله صخرتى به احتمى. ترسى وقرن خلاصى. ملجإى ومناصى .. أدعو الرب الحميد فاتخلص من أعدائى. لأن أمواج الموت اكتنفتنى. سيول الهلاك أفزعتنى. حبال الهاوية أحاطت بى. شرك الموت أصابتنى. فى ضيقى دعوت الرب وإلى إلهى صرخت فسمع فى هيكله صوتى وصراخى دخل أذنيه. فارتجت الأرض وارتعشت. أسس السموات ارتعدت وارتجت لأنه غضب. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. جمر اشتعلت منه. طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه .. أرعد الرب من السموات .. أرسل سهاماً فشتتهم وبرقاً فأزعجهم. فظهرت أعماق البحر وانكشفت أسس المسكونة من زجر الرب من نسمة ريح أنفه. أرسل من العلى فأخذنى. نشلنى من مياه كثيرة. أنقذنى من عدوى القوى من مبغضى لأنهم أقوى منى. أصابونى فى يوم بليتى وكان الرب سندى. أخرجنى إلى الرحب. خلصنى لأنه سر بى. يكافئنى الرب حسب برى. حسب طهارة يدى يرد علىَّ ...

تنقذنى يارب من مخاصمات شعبى وتحفظنى رأساً للأمم. شعب لم أعرفه يتعبد لى. بنو الغرباء يتذللون لى .. حى هو الرب. الإله المنتقم لى والمخضع شعوباً تحتى .. لذلك أحمدك يارب فى الأمم ولاسمك أرنم.

***

تذكر الرب إثم داود. وهو فى أواخر أيامه. وإله داود إله منتقم وغضوب لا ينسى خطيئة عباده ويضرب بعنف وقسوة .. وبضربة واحدة قد يفنى عشرات الآلاف.

تكلم الرب إلى "جاد" النبى رائى داود. قال:

- اذهب لداود وقل: هكذا قال الرب.

توجس جاد .. امتلأت نفسه خيفة .. توقع شرا .. لأن صوت الرب كان غاضباً. سأل:

- ماذا أقول له يارب؟

قال الرب:

- ثلاثة أنا عارض عليه فليختر لنفسه احداً منها فافعله به.

استمع جاد إلى كلمات الرب وهى كلمات مرعبات. ذهب إلى داود وأنبأه بما تحدث به الرب:

- أتأتى عليك سبع سنى جوع فى أرضك أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك أم يكون ثلاثة أيام وبأ فى أرضك.

الخيارات التى فرضها الرب كانت كلها صعبة .. إن لم تكن قاهرة مدمرة: الجوع أو الوبأ أو الفرار أمام الأعداء والسيف مسلط على رقبة داود!!

فوجئ داود بما عرضه "جاد النبى" لم يتوقع فى أخريات أيامه أن يفرض عليه إله إسرائيل عقاباً كهذا العقاب وكان دائماً يتوسل فى ترانيمه إلى رب الجنود أن يحل نعيمه على داود وعلى إسرائيل وأن يكونوا دوماً فى واسع نعمته .. فإذا بالرب ينزل عليهم غضبه ونقمته.

اغتم داود. اعترته الحيرة. أى اختيار من النقم الثلاث كانت عليه أن يختار .. وكلهن مهلكات؟ أطرق إلى الأرض فى صمت مكلوم.

قال "جاد" الرائى:

- تكلم ايها الملك .. وانظر ماذا أرد جواباً على مرسلى.
- ضاق بى الأمر ولا أعرف كيف اختار. الفواجع أثقل من أن تحتملها طاقة إسرائيل.
- لا مهرب من كلمة الله يا داود. أنت تعرف أن كلمة الله قضاء .. وقضاؤه لا يهرب منه أحد. لا أحد يا ملك إسرائيل!!
- ليس أمامنا إلا الاستسلام والخضوع. أعرف. لكنى مشفق على بنى إسرائيل .. فما هى جريمتهم وماذا فعلوا؟
- لابد وأن أعود بجواب.
- إذن فلنسقط فى يد الرب لأن مراحمه كثيرة. هذا أفضل بكثير من أن نسقط فى يد إنسان لا نعرف على وجه التحديد ما قد يحدثه بنا .. قد يستأصلنا .. قد يمحى وجودنا من وجه الأرض.
- أختارت الوبا؟
- نعم. لنسقط بيد الرب بدلاً من أن نسقط بسيوف الفلسطينيين أو غيرهم. يد الرب أرحم فنحن شعبه وهو الذى اختار.

انتشر الوبأ فى إسرائيل .. زاحفاً مدمراً لا يستطيع أن يوقف زحفه أحد. سقط سبعون ألف رجل. سبعون ألفاً قضى عليهم رب الجنود الغاضب فى ثلاثة أيام .. الرب يأمر ملاكه وملاكه يحصد الأرواح

بعشرات الآلاف.. لا يتردد.. لا يسأل.. لا يفكر. إنه مجرد أداة فى يد إله جبار.

بسط الملاك يده على أورشليم.. وانتظر أمر الرب. هل يهلكها وتكون نهاية حلم هذا الشعب التائه فى أن يكون له رمز ووطن؟ هل يدمرها.. هل يبقى عليها؟ لم يكن بمقدرته اتخاذ قرار. الأمر لم يصدر بعد.

لكن رب إسرائيل – كما يقول كتاب العهد القديم – كان قد ندم عن الشر. إنه يقترف من الشرور ما قد يقترفه البشر .. ويندم عن الشر أيضاً كما يندم البشر. ولقد أنب موسى هذا الإله ووبخه فى أكثر من موقف. [1]

قال الرب الذى ندم عن الشر للملاك المُهلك:

– كفى. الآن رد يدك.

قالها الرب بعد أن تضرع داود وتوسل وأظهر مذلته:

– ها أنا قد أخطأت وأنا أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ ماذا فعل شعب إسرائيل حتى تبيده؟ .. لتكن يدك علىَّ وعلى بيت أبى.

نصح "جاد" داود أن يبنى مذبحاً وأن يصعد محرقات وذبائح سلامة. عمل داود بالنصيحة. بنى المذبح. اصعد المحرقات وذبائح السلامة. وإله إسرائيل كما قيل فى "التوراة" يتلذذ دوماً برائحة الشواء!!

---

[1] انظر كتابنا موسى فى الأساطير الإسرائيلية.

استجاب الرب بعد أن استمتع بالذبائح والمحرقات ورضى. كفت الضربة عن إسرائيل وتوقف سقوط الأحياء موتى.

***

شاخ داود. تقدم فى السنين. بدأ جسده يرتعد حتى فى اشد الأيام حراً. كانوا يدثرونه بالثياب فلا يدفأ. البرد كان ينبعث من داخله وكان من المستحيل أن يصلوا إلى داخله فيدثروه. الثياب فى هذه الحالة لا جدوى منها.. لا تفيد. كان لابد من البحث عن وسيلة شافية لبعث الدفء فى داخل الملك.

أشار عبيد داود على سيدهم أن يسمح لهم بأن يبحثوا له عن فتاة عذراء جميلة تقف أمام الملك وتكون له حاضنة. سأل داود فى تأفف:

- تكون حاضنة لى كما لو كنت طفلاً؟ هل هذا رأى سديد؟

أجاب أحد أصحاب المشورة:

- تضطجع فى حضنك .. يدفأ سيدنا الملك.

- فى حضنى؟ .. نعم. هذه فكرة رائعة .. رغم أننى تخطيت مرحلة الرغبة فى احتضان النساء .. لكن لا بأس فلتقم هى باحتضانى.

فتّش عبيد داود عن فتاة جميلة فى كل تخوم إسرائيل. كانوا يبحثون عن أجمل الجميلات. إنها ستؤدى دوراً فيه قدسية تصل إلى حد العبادة .. إنها ستشرف باحتضان مسيح الرب.

وجدوا أبيشح الشونمية. جاءوا بها إلى الملك. كانت الفتاة بإجماع آراء من أتوا بها وكل من رأوها جميلة جداً. لا توجد من هى

أجمل منها فى كل إسرائيل. أصبحت حاضنة الملك. وكانت أيضاً تقوم على خدمته. لكن الملك لم يعرفها أى لم يعاشرها .. بالتأكيد لأنه كان لا يستطيع .. ولو استطاع لفعل.

إن تاريخ داود مع النساء مسجل ومعروف والسيف الذى سُلِّط على بيته كان بسبب زناه مع امرأة أوريا الحثى الذى كان فى حرب يدافع عن المملكة وعن الملك .. فخانه الملك.

***

اجتمع "أدونيا" بن داود – وهو أخو أبشالم ولدته أمه حجيث بعد أبشالوم – مع عدد من رجاله. قال لهم:

– لقد شاخ الملك وتقدم به العمر .. ما عاد يملك المقدرة على أن يمارس سلطاته .. لا يستطيع أن يصدر أمراً أو أن يفرض رأياً. المملكة فى حاجة إلى رجل قوى. ماذا تقولون؟ هل ترونني أخطأت؟

قال يوآب رئيس الجيش:

– أصبت يا أدونيا. نطقت بما يعتمل فى صدورنا ولم تنطق به ألسنتنا.

وقال أبياثار الكاهن:

– نريد أن يكون على رأس الدولة ملك قادر.

قال يوآب:

– ليس عندنا الآن من هو أقدر من أدونيا.

– أوافقك الرأى. وليكن أدونيا هو الملك .. ملك إسرائيل.

لم يعترض أدونيا على ما قاله يوآب وأبياثار فأولهما قائد الجيش وثانيهما كاهن المملكة. **قال فى ترفع:**

- هذا حقى .. أن أكون ملكاً .. فأنا ابن داود الملك .. وأخو أبشالوم الملك.

سمع كل من بالمملكة بإعلان أدونيا ملكاً على إسرائيل. فرح البعض. انزعج كثيرون: صادوق الكاهن وناثان النبى والجبابرة الذين لداود لم يكونوا مع أدونيا.

سأل أبياثار الكاهن صادوق النبى:

- لماذا تعترض يا صادوق على أن يكون أدونيا ملكاً؟
- أنا لا اعترض على شخص أدونيا فهو جميل الصورة جداً وهو ابن سيدنا الملك داود.
- إذن لماذا لا تباركه؟
- كيف أباركه والملك داود لا علم له بما يحدث؟ هل استشرتم الملك؟ هل أخذتم رأيه؟ هل مسيح الرب هو الذى اختار؟
- الشعب هو الذى اختار والشعب له قوة وسلطان.
- من الأفضل أن ننتظر حتى يتكلم الملك.

ذبح أدونيا غنماً وبقراً. دعا جميع إخوته بنى الملك وجميع رجال يهوذا عبيد الملك. وأما ناثان النبى والجبابرة وسليمان أخوه فلم يدعهم.

لم يستطع ناثان السكوت على ما يحدث أمام عينيه: أحد أبناء داود يتوج نفسه ملكاً فى حياة داود وداود لا علم له .. إنه يعيش فى

عزلة شيخوخته يرتعد وتقوم عذراء جميلة بأخذه فى حضنها كى يشعر بالدفء. داود الذى كان الجميع ينظرون إليه على أنه من أعتى الجبابرة ما عاد يقدر على شئ.

توجه ناثان إلى بثشبع أم سليمان. قال لها:

- أما سمعت أن أدونيا ابن حجيث قد ملك؟
- هل تم مسحه بالزيت المقدس؟
- ما مسحه أحد.
- هل وضع داود نفسه التاج على رأسه؟
- سيدنا داود لا يعلم.
- إذن .. لا يحق لأدونيا أن يفعل ما فعل.
- لكنه فعل وعلينا أن نتصدى له.
- كيف؟
- أشير عليك مشورة قد تكون فيها نجاتك ونجاة ابنك سليمان.
- مصغية أنا لما تقول. تكلم.
- اذهبى وادخلى إلى الملك داود وقولى له أما حلفت أنت يا سيدى الملك لأمتك قائلاً إن سليمان ابنك يملك بعدى وهو يجلس على كرسى. فلماذا يملك أدونيا. وفيما أنت متكلمة هناك مع الملك أدخل أنا وراءك وأكمل كلامك.
- رأى سديد يا ناثان. أقوم من فورى وأدخل إلى الملك.

دخلت بثشبع إلى مخدع الملك. كان الملك قد شاخ جداً .. يرتعد رغم أحضان أبيشج الدافئة. خرت بثشبع على وجهها. سجدت للملك. **سألها داود:**

- مالك يا بثشبع؟ ماذا بك؟

قالت:

- أنت يا سيدى حلفت بالرب إلهك لأمتك قائلاً إن سليمان ابنك يملك بعدى وهو يجلس على كرسى.
- حدث وسيحدث لقد أقسمت.
- لكن .. الآن هو ذا أدونيا قد ملك.
- كيف يملك وأنا لم أباركه؟ كيف يجرؤ دون أن يسألنى؟ لن يكون لشعب الرب ملك فى حياة داود إلا إذا باركه داود ووضع بنفسه التاج على رأسه.
- هذا معناه أن أدونيا قد أخطأ .. يا سيدى الملك.
- إنه إثم يا بثشبع .. إثم كبير.
- لكنه لا يخفى إثمه. لقد ذبح ثيراناً ومعلوفات وغنماً بكثرة ودعا جميع بنى الملك وأبياثار الكاهن ويوآب رئيس الجيش ولم يدع سليمان عبدك.
- أنا لم أخبره. ولم يأت هو إلى هنا كى يستمع إلى صوت الملك.
- عليك أن تخبر بهذا كل إسرائيل. كل العيون تتجه نحوك كى تؤكد لهم أن أدونيا هو الملك أو أن تخبرهم باختيارك .. من يجلس على كرسى سيدى الملك بعده.

- لقد اخترت سليمان .. ابنك.
- هذا لا يجدى بينى وبينك. لابد وأن تعرف كل إسرائيل. فيكون إذا اضطجع سيدى الملك مع آبائه أنى أنا وابنى سليمان نحسب مذنبين .. إذا لم يعلن الملك أن سليمان هو وريثه وخليفته على كرسى عرشه. وقد تكون نهايتنا على يد أدونيا وأتباعه.
- لا أظنه يجرؤ.
- يجرؤ يا سيدى. لقد وقف إلى جانبه وأيده يوآب ابن صروية قائد جيوشك ومعه أبياثار الكاهن. ويوآب كما تعلم لا يتورع عن فعل أى شئ .. إنه مولع بإراقة الدماء .. يذبح البشر وكأنه يعبث ويزهق الأرواح وكأنه يلهو. تذكر أيها الملك أنه هو الذى قتل أبشالوم رغم أنك قد أوصيت بالفتى. طلبت علناً وأمام الجميع أن يترفقوا به ولم يترفق. هل تتوقع أن يترفق بى وبسليمان إذا ملك أدونيا؟
- لن يملك أدونيا يا يشبع. تذكرى دوما أن هذا هو ما قاله داود الملك: لن يملك أدونيا!!

وبينما هى تتكلم مع الملك استأذن ناثان النبى طلب أن يمثل بين يدى الملك. همس حارس الباب:

- ناثان النبى يا سيدى الملك.
- ماذا يريد ناثان؟
- المثول بين يدى مولاى.

- أدخله.

انسحبت بثشبع ودخل ناثان إلى أمام الملك. سأله داود:

- ماذا أتى بك يا ناثان؟
- يا سيدى الملك أأنت قلت: إن أدونيا يملك بعدى وهو يجلس على كرسى؟
- انا لم أقل.
- لكنه نزل اليوم وذبح ثيراناً ومعلوفات وغنماً بكثرة ودعا جميع بنى الملك ورؤساء الجيش وابياثار الكاهن وها هم يأكلون ويشربون.
- من حقهم يا ناثان ان يأكلوا ويشربوا ويستمتعوا. هذا حق لا ينكره عليهم أحد. ماذا يضرك؟
- يا سيدى الملك ليتهم اكتفوا بالطعام والشراب واللهو. إنهم يهتفون: ليحيا أدونيا .. الملك!!
- أحقاً ما تقول يا ناثان؟
- أقسم بإله إسرائيل ..
- لست فى حاجة إلى أن تقسم. ما قلته قالته بثشبع من قبل.
- لقد خيل إلىَّ يا سيدى أن كل هذا قد حدث بأمر منك ولم تُعْلِم به عبدك. لقد اعترتنى الحيرة وتملكتنى الشكوك.
- سنقضى على شكوكك. ونضع حداً لحيرتك الآن.
- كيف يا سيدى الملك؟

- سيعلن داود نفسه من يجلس على كرسى الملك من بعده. أدع لى بثشبع.

دخلت بثشبع وهى هادئة مطمئنة النفس. إنها على يقين من أن ناثان قد قام بدوره خير قيام. وقفت بين يدى الملك.

- جاريتك أنا يا سيدى .. رهن إشارتك وطوع بنانك .. وليكن داود الملك لنا قوة وسنداً إلى آخر أيام حياته.

قال الملك:

- استمعى بثشبع إلى ما أقول فهو محدد وحاسم وخطير.
- أمتك تسمع وتطيع.
- أقسم بإله إسرائيل الحى الذى فدى نفسى من كل ضيقة. إنه كما حلفت لك بالرب إله إسرائيل قائلاً إن سليمان ابنك يملك بعدى وهو يجلس على كرسى عوضاً عنى كذلك أفعل اليوم.
- خَرّت بثشبع على وجهها إلى الأرض. سجدت للملك. قالت:
- ليحى سيدى الملك داود إلى الأبد.

طلب الملك أن يحضر إليه صادوق الكاهن مع ناثان النبى قال لهما:

- خذا معكما عبيد سيدكم وأركبوا سليمان ابنى على البغلة التى لى وانزلوا به إلى "جيحون". وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبى ملكاً على إسرائيل. واضربوا بالبوق وقولوا. ليحى الملك سليمان.

صاح ناثان النبى:

- حق وعدل ما نطق به مسيح الرب. ما قال به داود الملك.

- صمتا ياناثان واستمع إلىَّ حتى أكمل قولى.
- معذرة سيدى ومغفرة.
- بعد أن تمسحوا سليمان ملكاً اصعدوا وراءه فيأتى ويجلس على كرسى وهو يملك عوضاً عنى وإياه قد أوصيت أن يكون رئيساً على إسرائيل ويهوذا.
- آمين.

بعد لحظات صمت قال ناثان: هكذا يقول الرب إله سيدى الملك. وكما كان الرب مع داود كذلك ليكن مع سليمان ويجعل كرسيه أعظم من كرسى سيدى الملك داود.

قال الملك وقد بدا عليه الإرهاق:

- الآن انصرفا. أريد أن أرى سليمان ملكاً .. اليوم !!

***

نزل صادوق الكاهن وناثان النبى والجلادون والسعاة وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود وذهبوا به إلى "جيحون". أخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان. هكذا أصبح سليمان مسيح الرب.

ضربوا بالبوق. وهتف جميع الشعب ليحى الملك سليمان!!

صعد جميع الشعب وراء سليمان. كانوا يضربون بالناى ويفرحون فرحاً عظيماً حتى انشقت الأرض من أصواتهم.

قال صادوق الكاهن لـ "ناثان" النبى:

- ما أردناه تحقق. أفشلنا سعى أبياثار الكاهن ويوآب قائد الجيش. أرادوا "أدونيا" ملكاً وأردنا سليمان ملكاً. وكان لنا ما أردنا بفضل مباركة داود مسيح الرب وملك إسرائيل.
- أتعتقد أن يوآب معتمدا على قوة الجيش قد يتمرد؟
- يتمرد على ماذا؟
- على داود وسليمان ويتمسك بإعلانه أدونيا ملكاً.
- لن يجرؤ على ذلك.
- كيف لا يجرؤ وهو يمتلك القوة والسيف؟
- لن يتبعه أحد. لن يرضى الشعب أن تنقسم إسرائيل على ذاتها وتجرد أسيافها وتقتتل. لقد مَلّ الشعب كثرة الحروب. الجميع يتوقون إلى أيام سلام تحت رايه سليمان الوريث الشرعى للعرش والمختار ملكاً من داود نفسه.
- ليبارك الرب الجميع.

***

سمع أدونيا وجميع المدعوين عنده ضجيج الشعب وهم يضربون بالناى ويهتفون باسم سليمان. وسمع يوآب صوت البوق والقرية كلها تضطرب. تساءل:

- لماذا كل هذا الضجيج وهذا العجيج؟ لماذا صوت القرية المضطرب؟

فوجئ الجميع بدخول أبياثار الكاهن. رحب به أدونيا قد ظن أنه قد جاء ليؤازره. قال:

- أهلاً بك يا أبياثار. تعال. لتكن ناصحاً أميناً لأدونيا الملك.

أجاب أبياثار:

- يا سيدى أنت لست بملك .. ولن تكون.
- كيف يا أبياثار والجموع من حولى تهتف باسمى معلنة أننى أنا الملك؟
- سيدنا الملك داود قد ملَّك سليمان!! تم مسحه فى "جيحون". الأصوات التى سمعتها أنت ومن معك هى اصوات فرح الشعب واحتفاله بسليمان .. حتى اضطربت القرية. هذا هو الصوت الذى سمعتموه. لقد جلس سليمان على كرسى الملك. باركه الجميع كما باركوا سيدنا الملك داود قائلين: يجعل إلهك اسم سليمان أحسن من اسمك وكرسيه أعظم من كرسيك فسجد الملك على سريره. وأيضاً هكذا قال الملك: مبارك الرب إله إسرائيل الذى أعطانى اليوم من يجلس على كرسىَّ وعيناى تبصران.

سيطرت حالة من الخوف على جميع مدعوى أدونيا. ارتعدوا. ذهبوا كل واحد فى طريقه. الملك الذى آزروه التفوا حوله ما عاد ملكاً .. ولا علم لهم بما قد يحيق بهم. بما قد يفعله بهم الملك الجديد. حاول كل منهم النجاة بنفسه وانتظار المجهول فى أول أيام ملك سليمان.

أما أدونيا فقد سيطر عليه الخوف هو الآخر. لقد أقام من نفسه ملكاً .. وذبح وأولم وجمع من حوله الأنصار دون أن يخبر بذلك أباه داود. وها هو ذا داود يرفضه ويجلس على كرسيه ولده سليمان. ما فعله

أدونيا فى هذه الحالة يعتبر تمرداً وخروجاً عن إرادة الملك .. والتمرد لن يمر بلا عقاب.

قام أدونيا وهو فزع. انطلق. تمسك بقرون المذبح. أخبر الملك سليمان بما فعله أدونيا .. إنه لن ينزل عن المذبح حتى يقسم له الملك سليمان أنه لن يقتله. إنه يطلب الأمان. لقد أخطأ. هذا صحيح. لكن خطيته لا تستحق أن يكون أجرها الموت.

قال سليمان:

- إن كان ذا فضيلة لا تسقط شعرة واحدة من شعره إلى الأرض. ولكن إن وُجد به شر فإنه يموت!!

ثم أرسل بعض عبيده كى ينزلوا أدونيا عن المذبح. فأنزلوه. قادوه إلى حيث سليمان ارتمى أدونيا على الأرض عند أقدام سليمان. مرغ وجهه فى التراب. أعلن ندمه. قال:

- أقسم برب الجنود إله إسرائيل أنى أبداً ما علمت أن أبى قد اختارك أنت ملكاً. ولو قد علمت ما أقدمت على ما فعلت. أبونا داود الملك أمره مطاع .. لا عصيان له ولا خروج عليه. أنت الآن الملك وأنا عبد من عبيدك فلا تأمر بإراقة دمى.

قال سليمان:

- اذهب إلى بيتك. لن يمسسك سوء. عُد إلى بيتك فى سلام.

***

شعر داود أن أيامه على الأرض قد قربت نهايتها وأنه راحل بعد قليل إلى باطنها. استدعى سليمان إليه وأوصاه. قال:

- تشدَّد وكن رجلاً. احفظ شعائر الرب إلهك واحفظ فرائضه .. وصاياه وأحكامه وشهاداته .. كما هو مكتوب فى شريعة موسى.

قال سليمان:

- سيدى الملك. أنت أمرت أن أمسح بالزيت وأن اجلس على كرسيك وأن أكون ملكاً. كل ما تأمر به مطاع.
- أنصت جيداً لما سأقوله لك بخصوص بعض المحيطين بك وفكر جيداً فى قولى.
- عبدك أيها الملك.
- أنت تعلم ما فعل يوآب ابن صروية .. ما فعل لرئيس جيوش إسرائيل "أبنير بن نير" و "عماسا بن يثر" إذ قتلهما وسفك دم الحرب فى الصلح وجعل دم الحرب فى منطقته التى على حقويه وفى نعليه اللتين فى رجليه.
- أعلم هذا يا سيدى حق العلم.
- إذن افعل بيوآب حسب حكمتك. لكن لا تدع شيبته تنحدر بسلام إلى الهاوية. تفهم معنى ما أقول؟
- نعم يا سيدى. أمرك واضح كل الوضوح وسأعمل به.
- شخص آخر لابد وأن يلقى نفس مصير يوآب.
- من سيدى الملك؟
- شمعى بن جيرا البنيامينى. لقد لعننى لعنة شديدة وسبَّنى سباباً مقذعاً أيام هروبى من وجه أبشالوم.

- ماذا تريد أن أفعل به سيدى الملك؟
- أحدرْ شيبته بالدم إلى الهاوية.
- هل من وصية أخرى سيدى الملك.
- أكرم من أكرم أباك فى أيام ضيقه ولا تبخل عليهم واجعلهم من الآكلين على مائدتك. ولتكن أيام ملكك كلها عدل وأمن ورخاء لبنى إسرائيل .. كل إسرائيل.

***

بعدها مات داود. اضطجع مع آبائه ودفن فى مدينة داود بعد ان ملك على إسرائيل أربعين سنة. فى حبرون ملك سبع سنين وفى أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين.

هكذا انتهت حكاية داود كما جاءت فى "العهد القديم".

الدكتور وجدى الفيشاوى

- ليسانس فى الأدب الإنجليزى. آداب القاهرة.
- ماجستير فى النقد الإنجليزى. آداب القاهرة.
- دكتوراه فى الأدب الإنجليزى. جامعة برمنجهام. إنجلترا.

أهم ما نشر له:

- محمد (ص): سنوات مكة، دراسة نقدية.
- محمد (ص): سنوات المدينة، دراسة نقدية.
- لا تصلبوا المسيح: دراسة نقدية.
- موسى فى الأساطير الإسرائيلية: دراسة نقدية.
- اليهودى لا يحب السلام: مسرحية مأساوية.
- مأساة الفرعون: مسرحية.
- رجل لا أعرفه: مسرحية عبثية.
- الجامعة والصعود إلى الهاوية: رواية.
- منحرفون وبغايا، بصفة فى وجه الفساد: رواية.
- الحزن فى عيون الرجال: رواية.
- الطيران بلا أجنحة: رواية مؤلفة بالإنجليزية.
- د. هـ. لورنس: دراسة نقدية، مؤلف بالإنجليزية، تقديم ستانلى ويلز Stanley Wells الأستاذ بجامعة أكسفورد والمدير السابق ل The Shakespeare Institute

- نقد النقد فى التراجيديا الشكسبيرية: مؤلف بالإنجليزية، تقديم روبرت سمولود Robert Smallwood الأستاذ بجامعة برمنجهام.
- مدخل إلى الملك لير: مؤلف بالإنجليزية.
- دراسات نقدية: مؤلف بالإنجليزية.
- مختارات من القصص القصيرة بالإنجليزية. تقديم الدكتور وجدى الفيشاوى.
- جورج برنارد شو: حياته بقلمه. مترجم من الإنجليزية.
- قطة فوق صفيح ساخن: مسرحية مترجمة من الأدب الأمريكى.

تحت الطبع:

- كتاب الآلهة.

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٧/٢٨٦٥٣

داود ملكا
حكاية من العهد القديم
الدكتور
وجدي النفيشاوى